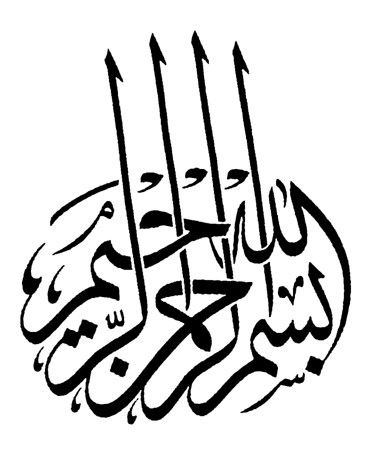
دار المازري
تونس

سَطوةُ البَيانِ الخالِدِ

خالد بُـرَيْه

سَطْوَةُ البَيَانِ الخَالِد



خالد بُرَيه

سَطْوَةُ البَيَانِ الخَالِدِ

تقديم الأستاذ العلامة

محمد بن يوسف الزّبيدي



الكتاب: سَطْوَةُ البَيَانِ الخَالِد

الكاتب: خالد بُرَيه

* * *

الطبعة الأولى

1442 هـ/ 2021 م

الترقيم الدولي: 978-9938-908-61-9

14 * 21 سم/ 186 صفحة

* * *



دار الإمام المازري للنشر والتوزيع

فرع تونس: 12 نهج السبخة - باب الجزيرة - 1000

المقر الإداري: نهج صهيب بن سنان المغيرة 2 - تقسيم الوكالة العقارية للسكنى - بن عروس

الجمهورية التونسية

 + 216 25 953 466

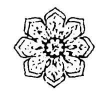
 dar.maziri@gmail.com

 @maziribookstore



﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

[آل عمران]

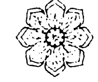


إهداء

إلى صَدِيقي الرَّاحِل؛ الذي قَالَ لي يَوْمًا:

لا تَلْتَفِتْ عِندَ قِراءَةِ القُرآن، إيَّاكَ والانشغالَ عنه..

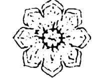
فَتَقْطَعَ حَبْلَ النُّوْرِ القَادِمِ مِنَ السَّمَاء!



تأمُّلاتٍ ونَظَرَاتٍ وأفكار،

كتبتُها بفعْلِ التَّأثُّرِ والاندهاش!

قلبُها التَّوحيد، وطَابعها التَّزكية، وهَدَفُهَا العمران والتغيير.





تقديم

فضيلة العلامة محمد بن يوسف الزُّبَيْدِي

الحمدُ لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على أشرفِ المرسَلين، سيدنا ونبينا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد أَطلَعَني الأخ/ خالد بن عبدالله بُرَيْه، على كتابه الموسوم «**سَطْوة البيَانِ الخالد**»، فقرأتُه حَرفًا حَرفًا، وتدبَّرْتُ معانيه؛ فوجدتُه معبرًا عنِ التَّأثيرِ البَليغ في قلبِ من قَرَأَ القرآنَ الكريم، مع تَدَبُّرِ معانيه البيانية. والوقوفِ على أَسرَاره العَزيزة، بلغةٍ رَصينة، وقَلْبٍ حَاضِر.

وقد أَفَادَ مؤلفه وَأَجَاد ووفى بالمراد في بيانِ سَطْوةِ القُرآنِ العَظِيم على قلبِ قَارئه وسَامِعِه.

فهو كِتَابٌ فَريدٌ في بابه، حيثُ نَبَّه القَارئَ إلى معاني تفسيرِ القرآنِ الكريم، وتأثيره على المتلقي، فهو تفسيرٌ وتوجيهٌ فكريٌّ



ونفسيٌّ وتَربوي إلى ما يُفيدُ القَارئ والسَّامعَ في سُلوكِ حياته. وطريقه إلى الله. وقد رأيتُ العملَ بهذه الطريقة في تفسيرِ القرآن الكريم.

فَجَزَى الله المؤلفَ خَيْرَ الجزَاء، ووفقنا وإيَّاه لما فيه رِضَاه وتقواه، وصَلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله سيدنا محمدٍ وعلى آله وصَحْبِه أَجمعين.

وكتبه:

أ. د محمَّد بن يوسف محمد الزُّبَيْدِي

عميد كلية الشريعة والقانون سابقًا – جامعة الحديدة

صنعاء – في 2 صفر 1440هـ

11 أكتوبر 2018م



المقدمة

يكَادُ أن يُجْمِعَ العُقَلاءُ من بني الإِنسان ممن قرأُوا القُرآنَ الكريمَ بروحٍ محايدةٍ منصفةٍ، بعيدةٍ عنِ التَّحَيُّزِ؛ أنَّ للقرآنِ «سَطْوةٌ» عجيبةٌ، وتأثيرًا مدهشًا، لا ينكرها أَحَدٌ ممن أَنْعَمَ النَّظَرَ فيه، ووقَفَ عليه، ولو كانَ مجرد سماعٍ لبعضِ آياته!

وقد مَنَّ الله عليَّ وقرأتُ شيئًا كَبيرًا من التَّوراةِ والإنجيل، وكنتُ أَقرأُهما بروحٍ بعيدةٍ عن التَّحَيُّز، ومتغاضيًا عن الحمولةِ الفكريةِ التي أؤمنُ بها تجاههما مُسبقًا، فما وجدتُ تلكَ السَّطْوة التي تهزُّ جدرانَ القلبِ والعقل، ولا وجدتُ ذلكَ التَّأثير الذي يأخذكَ من تلابيبك، ويُشعركَ بكَمالِ الرَّوعةِ، وعَظِيمِ الإِكبار.

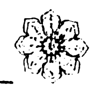
وبيانًا لسَطْوَةِ القُرآنِ الكريم على قلبِ المتلقِّي، أُقدِّمُ هذا الكتابَ إلى قُرَّاء العربية، يَضُمُّ بينَ حَنَايَاه تَأَمُّلاتٍ وخَواطِرَ

حول آياتٍ من القُرآنِ الكريمِ، كَتَبتُها -في الغالب- أثناءَ قراءتي للقرآنِ، وكثيرًا ما كان ينبعثُ في ذِهني معنًى من المعاني، أو فكرةٌ من الأفكار، أخشى أن يُعَفِّي النِّسيانُ آثَارَهَا، ويَطمِسَ الإهْمَالُ أَنوَارَهَا.. فأقيدها، وأجدُ نفسي ممتلئة بمعانيها.. فلا أستفيقُ إلا وقد سَطَّرتُ شيئًا لم يكن في خاطري قبلَ القراءة!

وهكذا، مَضَى السَّير في هذا الكتاب.. تستوقفني الآية فأكتبُ وهجَ التَّأثِير الذي قُذِفَ في رُوْعِي، والحالَ المدهشة التي تَلَبَّسَتْنِي في تلكَ اللحظة، حتى أشعرُ أني أَتيتُ على ما اختَلجَ في نفسي من مَعَانٍ!

وقد مَضَيتُ على هذا المنوال فتراتٍ طويلةً، حتى رأيتُ أنَّ بينَ يديَّ آياتٍ عديدةً تمَّ الحديث عنها، والتطرق لبعضِ أفكارها، وطرقِ زوايا عزيزة قد لا يُلتَفَتُ إليها.. فَرغِبتُ أن أجمعها في مكانٍ واحدٍ.

وأنا هنا لا أَدَّعِي أني قَدَّمتُ تفسيرًا لهذه الآيات.. فَكُتُبُ التَّفسيرِ تَملأُ المكتبةَ القرآنيةَ، كما إني لم أُقدِّم تأمُّلاتٍ جديدةً لم أُسْبَق إليها، وإنَّما كل الذي عملتُه أني كلما نَهَضَتْ في ذهني فكرة عندَ قراءتي للقرآن تستحقُّ الحياةَ والخلود، أُدَوِّنُها، دونَ الرجوع إلى كتبِ التفسير.. فإذا ما انتهيتُ منها، عُدتُ إلى بعضِ كتبِ التَّفسير، للتأكدِ والتثبت، والخوف من الانحدارِ والشَطَط.. وإني أَحْمَدُ الله أني ما كتبتُ شيئًا يخالفُ أَصلًا من أُصولِ التَّفسير.. وما



سَطَّرتُ فكرةً تلوي عُنقَ النَّص القرآني للوصولِ إلى معانٍ وأفكار تَتَّسِقُ مع الهوى الغَالبِ!

وكنتُ قد رَتَّبتُها بحسبِ ترتيبِ المصحفِ الشَّريف، ثم عدلتُ عن ذلك، ورأيتُ أن أجعلها في أقسامٍ ثلاثة، تتمحور حول قضايا «التَّوحيد»، و«التَّزكية»، و«العمران والتغيير»، على اعتبار أنها المقاصد القرآنية العليا الحاكمة، فالتَّوحيد هو حقُّ الله على خلقه، والتَّزكية تعتبر المؤهل للإنسانِ لحملِ رسالة القرآن، والعمران حقُّ الكون. ثمَّ جَعلتُ لكلِّ قسمٍ مدخلًا للتَّعريفِ بقضيةِ كلِّ فصل، والإشارة إلى الأفكارِ الكبرى التي وردت في ثناياه. وقد جعلتُ لكلِّ آيةٍ عنوانًا تتميزُ به، يختزلُ الفكرةَ والدلالات التي أتحدثُ عنها، ويحملُ أُوارَ التَّأثير المسطور، وكلُّ عنوانٍ لو تَأمَّله القارئ فسيجد نفسه تُنْعم الفكرَ فيه عند المرورِ على النَّص واكتشافِ مناجمه؛ وذلكَ لأنَّ العناوينَ مستوحاة من عبقريةِ الكتَابِ الخالدِ!

وما أريدُ أن ألفِتَ النَّظَرَ إليه: أني لم أجمع هذه الآيات بتوصياتٍ حثيثةٍ من القُرَّاء الذين قرأُوا طَرَفًا منها.. وإنما جمعتُها لأنها «قطعةٌ من نفسي» تَستحِقُّ البَقَاءَ؛ وليكونَ لي شَرفُ الكتابةِ ولو بشيءٍ يَسيرٍ عن النَّص الإلهي الخالد؛ لأنتَظِمَ في سلكِ من كَتَبُوا عن النُّورِ القادمِ من السَّماء.. فأحظى بِشَرفِ الانتسابِ والفَضْلِ!

وقد سَمَّيتُه «**سَطْوَةَ البَيَانِ الخالدِ**»؛ لأذكرَ شيئًا من التَّأثيرِ

الذي لِحَقَ بي، وكذا شيئًا من الأثَرِ الذي لامسني فأفرغته في بطنِ الكتاب.

والسَّطوة التي أعنيها؛ هي تلكَ التي أوقفتْ صناديدَ الكفر بتبتلٍ ومهابةٍ لسَماعِ القرآن مُرغَمِين، وجعلتهم يخرونَ على هامَاتِهم سُجَّدًا!

وهي ذاتها السَّطوة التي جعلتهم يفرُّونَ من سَماعه؛ خشية (تأثيره وسلطته) التي لا حَدَّ لهما، تلكَ السَّطوةُ التي حَيَّرتْ فيالقَ الشُّعَراءِ وفحولهم؛ فوقفوا مصلوبينَ على خَشَبةِ الاندهاش والانبهار! ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الحشر: 21].

أخيرًا: أَتَقَدَّمُ بالشُّكرِ الجزيل لكلِّ الإخوةِ الكرام الذينَ وَقَفُوا إلى جانبي في إِخراجِ هذا الكتاب، وأَعْمَلوا فيه قَلمَ النَّقدِ والتَّصويب، فازدادَ قِيمَةً وجَمالًا، وقد استقامَ الكتاب بعد توفيقِ الله، بفضلِ جهودهم وحرصهم على أن يظهرَ بصورةٍ تَليقُ بالبيانِ القرآنيِّ الخالد.

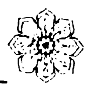
خالد بُرَيْه

صنعاء - في 5 ذي الحجة 1439هـ

17 أغسطس 2018م

Kaaaab2019@gmail.com

«قال جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رضي الله عنه، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾. قَالَ: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِير». وفي رواية: «فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قلبي لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»».



ظَاهِرَةُ السَطْوَة

«من أَعجبِ أَسْرَارِ القُرآنِ وأكثرها لَفْتًا للانتباه؛ تلكَ السَّطْوة الغَريبة التي تخضعُ لها النُّفوس عندَ سَماعِه.. (سَطْوَة القرآن) ظاهرةٌ حَارَتْ فيها العقول..

حينَ يَسْرِي صَوتُ القَارِئ في الغرفةِ يغشى المكان سكينة ملموسة تهبطُ على أَرجاءِ مَا حولك..

تشعرُ أنَّ ثمةَ تَوتُّراً يُغَادِرُ المكان..

كأنَّ الجمَادَات من حولكَ أطبقتْ على الصَّمْت..

كأنَّ الحركةَ توقَّفَت..

هناكَ شيءٌ ما تشعرُ به لكنَّكَ لا تستطيعُ أن تُعَبِّرَ عنه..

حينَ تكون في غرفتكَ -مثلًا- ويصدحُ صوتُ القَارئ من

جهازكَ المحمول، أو حينَ تَكونُ في سَيَّارَتِكَ في لحظاتِ انتظار ويتحوَّلُ صوت الإذاعةِ إلى عَرضِ آياتٍ مُسجلة من الحرمِ الشَّريف .. تشعرُ أنَّ سكونًا غَريبًا يتهادى رويدًا رويدًا فيما حَولَكَ..

كأنَّما كنتَ في مصنع يرتَطِمُ دوي عجلاته ومحركاته ثم توقَّفَ كل شيءٍ مرة واحدة..

كأنَّما تَوقَّفَ التَّيار الكهربائي عن هذا المصنعِ مرة واحدة؛ فَخَيَّمَ الصَّمت، وخَفَتَتِ الأَنوار وسَادَ الهدوء المكان..

هذه ظاهرة ملموسة يصنعُها (القرآنُ العظيم) في النُّفوس، تحدَّثَ عنها الكثير من النَّاس بلغةٍ مليئةٍ بالحَيْرةِ والعَجَب..»[1].

كما حَدَثَ معَ بَاحِثٍ أَمريكي وَجَدَ ضَالَّتَه -بعدَ سَنواتٍ منَ البحثِ والسَيْرِ وَرَاءَ الحقيقةِ- في رِحَابِ النُّورِ المبين، فَقَرأَ القُرآنَ الكريمَ مَرَّتينِ في زَمَنٍ قَصِير، وقال: «إنِّي مستعجلٌ على قراءَتِه، فعُمْري الآنَ ثلاثة وخمسونَ عامًا، وأخشى ألا يُمَكِّنَني بَصَري من القِراءَةِ كثيرًا، فأغتنم بصري!»؛ وما ذلكَ إلا لحاجَةٍ عَميقةٍ لنُورِ القُرآنِ في القلوب، وسَطوة ظاهرة، يراها مُرَاقبٌ محايد. فكيفَ بنا عندمَا نسمعُ القرآنَ بصوتِ قَارِئٍ بَارعٍ صَادقٍ مجيد خاشِع؟

(1) «الطريق إلى القرآن»، إبراهيم بن عمر السكران، ص: 10.



تمهيد

النّصّ القرآني بينَ التّيْسير والتّفسير

نَزَلَ الوحي على النَّبيِّ الأكرم، منجَّمًا، يعالجُ القضايا الحادثة، فكانَ فهمه على المتلقي يسيرًا؛ لأنه شهِدَ الوقائعَ التي تعامل معها النَّص، كما أنه كان يفهمُ المصطلح أو اللفظة التي اهتمَّ بتدوينها القرآن، وعقَل منشأَهَا، وقبلَ ذلكَ كله؛ كانَ صاحبُ الوحي بينَ ظهرانيهم، يبينُ ما انغلقَ عليهم، ويشرحُ ما غابَ عنهم، وما قصرت عنه أفهامهم[1]، وبهذه العوامل ملتصقًا بعضها ببعض،

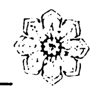
(1) ومثال ذلك ما رواه عَديّ بن حاتم في قوله: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، عَمَدت إلى عقالين، أحدُهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما فلا تَبَيَّن لي الأسود من الأبيض، ولا الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت. فقال: «إنّ وسادك إذًا لعريض، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل»، ينظر: مسند الإمام أحمد المسند (4/ 377)؛ تفسير ابن كثير (1/ 513).

كان القرآنُ يسيرًا في فهمه، في حدودِ البيئة التي تناولتْه، وظلَّ الأمر كذلك، حتى ابتعدت عوامل الفهم وبدأتْ تتلاشى، بموتِ النَّبيِّ الأكرم ﷺ، وابتعاد «ساحة الوحي» التي كانت ميدانًا لمعالجةِ القضايا والحوادث، ثم اتساع رقعة الأرض، وهذا ناتجٌ عن التوسع الحضاري، الأمر الذي سمحَ بتعدُّدِ الألسن، وغيابِ وهجِ العربية في صورتها الأولى!

فمثلًا غريب القرآنِ في عهد النَّبيِّ ﷺ كانَ محدودًا بينَ الكلماتِ المعرَّبة، والكلمات التي تتعلقُ بلهجاتِ العربِ المختلفة، بينما توسَّعَ المفهوم في عهدِ الصَّحابة بعد وفاة النَّبي، واشتدَّ توسعًا في عهدِ التَّابعين، وكلما امتدَّ الزمان واستطال، تصبح الكلمات الغريبة بالآلاف، بسببِ توسُّع ميدانِ التلقي، والحاجة إلى بيانِ ذلك.

ولقائلٍ أن يقول: إذا كانَ القرآن محفوظًا بأمرٍ إلهي، وقد يسَّره الله حفظًا وفهمًا، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: 17]. فما الذي جعلَ القرآن عسيرًا في الفَهم، ويحتاج إلى مئات بل آلاف التَّفاسير لتحقيقِ مفهوم الآية، والتي مفادها اليُسْر والتذليل في حفظه وفهمه؟!

وللإجابة على هذا التساؤل؛ يجب أن نعي أنَّ التفسير مرَّ بمراحل وتطوراتٍ متعددة، كما إنَّ مفهوم «التفسير» كانَ متعانقًا مع مفهوم «التأويل» في حقبةِ النُّزولِ الأولى، ولم يكن حينها ثمة تفريق، كما حصلَ فيما بعد، ولهذا، عندما دعا النبيُّ ﷺ لابن



عباسٍ رضي الله عنهما بالفهم والقدرةِ على التُّدبُّر وإيضاحِ مضمونِ القرآنِ وأسراره، قال: «اللهم علِّمْه التَّأويل»[1]. وعندما تمَّ صناعة أول كتابٍ مكتملٍ في التَّفسير عن طريقِ شيخ المفسرينَ ابن جرير، لم يجد حرجًا من تسميته: «**جامع البيان في تأويلِ القرآن**». لكنَّ الأمر أخذ منحىً مختلفًا بعد تقدُّمِ العصور، وابتعاد العوامل الأولى للفهم، واتساع ميدان التلقي الذي كان محدودًا في بيئةٍ معينة، ثم انفتحَ على أقطارِ الأرض؛ وتثاقفَ مع مجموعاتٍ دينية وفلسفية وفكريةٍ ونظرية، وبمقدارِ التَّوسع، تتسع دائرة السؤال، والتي بحاجةٍ إلى إجاباتٍ تتجاوز «المفردات الغريبة»، أو هذا المعنى ما المقصود به؟! واتساع دائرة السؤال؛ تفتحُ المجال للخوض في تناول النَّص القرآني بطريقةٍ تختلف إلى حدٍّ ما مع الطريقة الأولى التي اتُفقَ أن تجتمعَ فيها كل عوامل الفهم، ومنها بدأتْ المفاهيم بالانفصالِ والاستقلال!

ولأنَّ النَّص القرآني؛ هو الوثيقة المركزية الأولى في الانطلاقِ لتأسيس الأفكار وتشييدها؛ طمع كلُّ توجه أن يكونَ له نصيبٌ من القولِ فيه، ومن هنا تشعَّبت مدارس التَّأويل، وتعدَّدَت، واختلفَ التَّناول باختلافِ الاهتمامات والغاياتِ من عمليةِ التَّأويل أو التَّفسير... وفي هذه الفترة بدأ عِلمُ «التفسير» يتشكَّل بصورةٍ مستقلة، تأخذُ طابعًا شاملًا؛ لكون المتصدي لعمليةِ التفسير

(1) المعجم الكبير للطبراني (10/ 238).

بحاجةٍ إلى امتلاك أدوات التعامل مع النَّص القرآني، والاحاطةِ بالعواملِ المؤسِّسَة لفهمه؛ للانتقال من مرحلةِ «الأساس» إلى مرحلةِ «التَّأسيس» لعلوم وتفسيرِ القرآنِ الكريم.

وامتدَّت عملية التفسير والتأويل في الانتشار، وباتَا مطلبًا لكلِّ عصر، فتعدَّدت التفاسير، ما بينَ اختصارٍ، وتعليقٍ، وتحشية، وما بينَ تكرارٍ وتدويرٍ بشكلٍ أو بآخر... بما يراه (المفسِّر) مناسبًا للعصرِ والبيئة التي تحيطُ به، واستمرَّ هذا العطاء حتى عصرنا الحاضر!

ثم تطوَّرَت طرق التَّناول؛ ودخَلَ على خطِّ التأويل من تناوله من زوايا أخرى، كتحليل الخطاب، وتفكيكه، وإعمال بعضِ المناهج الغربية في دراسةِ النَّص القرآني، باعتباره مضمونًا إلهيًّا لكنَّه تنزَّل بلغةِ البشر وخَضَعَ لقوانينِ اللغة، وهذه إحدى المسائل الكبرى في درسِ التَّفسير المعاصر، والتي ينتهي بها المطاف إلى المحاولةِ في تجريدِ النَّص من قدسيته وإلباسه ثوبًا بشريًّا، قابلًا للتناولِ والنَّقد!

وقد تزامنَ هذا الاهتمام مع ظهور مدرسة نقد الكُتُبِ المقدَّسة في الفكرِ الغربي الحديث، التي كان من رموزها اسبينوزا... ورينان، وقد كانت هذه المدرسة وما زالت تنظر إلى الكتب المقدَّسة بوصفها نتاجًا بشريًّا له علاقة بالبيئةِ الثقافيةِ والحضاريةِ التي جاءت فيها هذه النصوص، لذلك عكفت على دراستها



في ضوء الوثائق التاريخية، وأخضعتها للنَّقد التاريخي من حيث الشكل والمضمون.

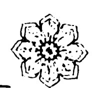
وظهرت ملامح هذا التوجه في محيطنا الإسلامي، إثر محاولاتٍ عصريَّة لفهمِ القرآن الكريم وإعادةِ تفسير بعض آياته، وصولًا إلى تفاسير حملت عناوين مثل «قراءة معاصرة»، معتمدةً على مناهج غربية، وملقيةً ورائها التفاسير القرآنيةِ السَّابقة، ويأتي على رأس هذا المسار، بعض المنشغلين بالفكر وإشكالياتِ التَّأويل؛ كمحمد أركون، وحسن حنفي، وعبد المجيد الشرفي، ونصر حامد أبو زيد.. «وهذا النَّوع من المقاربات للنصِّ القرآني، وهذه المقاربات التفسيرية؛ لا تلقى أي صدى في المجتمعات»، كما يجزم بذلك المفكِّر التونسي «أحميده النيفر». ولعل ذلكَ من آثارِ الحفظِ الإلهيِّ للقرآنِ بـ «مفهومه الشَّامل»[1]، إذ تتساقط أمامه عشرات ومئات الدَّعاوى والتأويلات التي تخرجه من دائرةِ المقدَّس، إلى حيِّز النَّص البشري!

وعند العودة إلى السؤال الجوهري؛ لماذا يسَّرَ الله القرآن، وعقَّدتْه التَّفاسير والتأويلات المختلفة، أو بطريقةٍ أخرى، ما الدَّافع لكلِّ هذه التَّفاسير، والنَّص يُسِّرَ فهمه من عندِ الإله؟!

---

(1) الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة في حقيته. ينظر: تفسير أبي السعود (5/ 68).

يجب ابتداءً أن ندركَ أنَّ اليُسْر في القرآنِ لا يعني «سهولة الفهم» بالشكلِ العفوي لهذا المعنى، وإنما السُّهولة واليسر هنا؛ تشبه إلى حدٍّ ما تسخير الكون للإنسان، فـ تيسيره من الله تعالى، كتسخير الله تعالى الكون للإنسان﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13]، فهذا التسخير الإلهي لا يعني سهولة التَّناول لسننِ الله في الكون دون أخذٍ بمقتضياتها، وإنما تحتاجُ إلى جهدٍ بشري، وإعمالٍ للعقل، وبحثٍ وأخذٍ بالأسباب، وكذا التيسير في القرآن؛ يحتاج إلى جهدٍ بشري، ومكابدةٍ بشرية، فلا يمكن أن نفهم عملية التفسير على أنها لا تحتاج إلى أي جهدٍ وتأملٍ ونَظَر، وإعمالٍ للعقل والفكر، واستخدام لأدوات الفهم، فالله سبحانه وتعالى ذكر أنَّ الكون مسخرٌ لنا، ولكنه طالبنا بالكدحِ وطالبنا بالجهد، وتكاد تتسقُ هذه الفكرة مع فكرة تيسير القرآن، فالتيسير هنا؛ هو إتاحةٌ لمدِّ يد المساعدة للإنسان حتى يتولى مهمته الأساسية، لكنَّ هذه الإتاحة تحتاج من الإنسان، إلى عملٍ حقيقي، على مستوى الفهم، وعلى مستوى مراجعة هذا الفهم، إذا أخذنا في الاعتبار أنه ليس هناك فهم أمثل، لأننا نعتقد أنَّ النَّص الإلهي لا يمكن أن يحجر عليه فهم ما مهما كانَ هذا الفهم، إلا فهمُ النَّبيِّ وبيانه ﷺ. فلذلك من الممكن أن نعتبر تيسير الذِّكر؛ نوعٌ من مساعدة البشر على أن يرتقوا باستمرارٍ لفهمِ مبتغى الله ومقصده، مع مراعاةِ ظروفهم واحتياجاتهم الآنية!



وما يؤيد هذا الفهم؛ النُّصوص القرآنية المتظافرة التي توصي بتدبُّرِ القرآن، والتَّفَكُّر والتَّأمل فيه، والتَّدبُّر عملية حفرٍ عميقة في مضمونِ النَّص، لتأمل مضمون الخطاب الإلهيِّ في القرآن، ومن تَدَبَّر وأعْمَلَ عقله في فهمه؛ يسَّرَه الله له!

والأثر الذي أورده الإمام الطبري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، يؤيد فكرة التيسير والمراد بها، وذلك في قوله: «التفسيرُ على أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لاَ يُعذَر أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يعلمه العلماء، وتفسيرٌ لاَ يعلمه إلا الله تعالى ذكره»(1). فتخصيص العلماء بتفسيرٍ لا يعلمه أحدٌ سواهم، يفيدُ إعمالَ التفكر والتدبر للوصول إلى المعنى المراد، وتيسير الفهم لمن سلكَ الطُّرقَ الصحيحة لتأويلِ وتفسير القرآن، وهي مبثوثة في مدوناتِ علومِ القرآن كالبرهانِ والإتقان.

ولتقريب فكرة «التيسير والتسخير» التي ذكرتها آنفًا، نستشهدُ بفكرةِ «الحفظ الإلهي» للقرآنِ الكريم، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، والسؤال المتبادر إلى الذِّهن: لمَ اشتغلَ الصحابة بجمعِ القرآن في المصحف وقد وعَدَ الله تعالى بحفظه، وما حفظَه الله فلا خوفَ عليه؟!

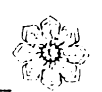
(1) تفسير الطبري (1/ 75).

وقد وقفتُ على جوابٍ بديعٍ للإمامِ الفخر الرَّازي، حول هذا التساؤل، الذي يشبه إلى حدٍ كبير، سؤال تيسير الفهم، وتعدُّد التفاسير التي توحي بصعوبةِ النَّصِ القرآني وحاجته للدِّراسة، قال رحمه الله: «إنَّ جَمْعَهم لِلْقُرْآنِ كانَ مِن أسْبابِ حِفْظِ الله تَعالى إيّاهُ فَإنَّهُ تَعالى لَمّا أنْ حَفِظَهُ قَيَّضَهم لِذَلِكَ»[1]. وعليه؛ نقولَ: أنَّ التَّفاسير المبثوثة حولَ النَّص القرآني، كانت من أسبابِ تيسيره. فقيَّضَ له العلماء الراسخين يحفظونه «بالتلاوة والحفظ والفهم»، ويذبونَ عنه إلى آخرِ الدَّهر.

وبيانُ القرآن وتفسيره؛ لا ينبغي أن يكونَ حاجزًا عن غايةِ البيان، وهو الوضوح، وإظهار المعنى، وإلا لأصبحَ التفسير عبئًا على النَّص، وسببًا من أسبابِ حجز الملتقي عن فهمه، ومن هذا الوجه؛ يصحُّ القول: بأنَّ بعض طرق التناول للقرآن؛ كانت سببًا في تعقيده، أكثر من كونها تمارسُ عملية التَّفسير بمعناه البدهي، وهذا التكلُّف، وليُّ عنق النصوص، هو الذي حدا بكثيرٍ من العلماء؛ أن يحذروا من اتخاذ بعض التفاسير أو التأويلات واسطة للفهم بين المتلقي وبين النَّص القرآني؛ لأنها تقفُ حاجزةً له عن الفهم، أكثر من مساعدته على التأمُّل وإدراك مرامي **مقاصد وغايات القرآن العظيم!**

---

(1) تفسير الفخر الرازي (1/ 2661).



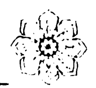
وفي الأخير؛ نحنُ أمام نصٍّ إلهيٍّ معجز[1]، كلما مرَّ به الزَّمن، توهَّج، وتمكَّن من أخذِ مكانه كأعظمِ كتابٍ تناولته الأيدي والعقول، وستبقى عملية التفسير والتأويل قائمة حتى يرثَ الله الأرض، لأنها استجابة طبيعية لحاجةِ الإنسان في القرب من كتابِ ربه، كما أنها من وجهٍ آخر تدلُّ على يقظةِ المجتمع، والوعيِّ المجتمعي، من خلالِ استعداده المتواصل ليلتحم بجذوره التي تأسَّست عليها حضارته، فمن هذه الناحية، تبقى عملية التفسير المستمرة، ظاهرة صحية، لكنها تخضعُ للنقد والتمحيص، ومدى تحقيقها للغاياتِ الكبرى في تثويرِ النَّص، ومدى قدرتها على تجاوز الخروج من حالةِ المأزق التي يسميها بعض الباحثين المعاصرين «مأزق المعنى»، بمعنى: عملية ربط الماضي بالحاضر، والعيش في حالةٍ أشبه ما يكون بحالة الفصام.

ومن الممكن، أنَّ نرى في استمرار عملية التَّفسير في واقعنا المعاصر، تجسيرًا وربطًا للعلاقة، بصورةٍ إيجابية بينَ «الماضي وبينَ مقتضياتِ الحاضر»، وهي بالمجمل ظاهرة صحية، وإن لم توفَّق إلى نتائج حقيقيةٍ كبرى، نأمل أن تصلَ إليها.

---

(1) وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف مع أنَّ دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات. ينظر: تفسير الفخر الرازي (1/ 2661).

مقام التوحيد



مدخل

لقد أَلِفَ القُرَّاء وطُلاب العِلمِ والمعرفة الحديثَ عنِ التَّوحيدِ من خلالِ المسائلِ الحِجَاجيَّة والكلامية التي تُبْطِلُ الأَقوالَ المنحرفة، وتَقِفُ في وجه البَاطِلِ كحَائِطِ صَدٍّ مَنيع؛ ليطلَعَ موكب الحقِّ بسَطْوَتِه، وفيلق البرهانِ بِعُدَّتِه. كما أنَّ أول مَا يتبادرُ إلى الذِّهن إذا ما ذُكِرَتْ كلمةُ التَّوحِيد؛ هو التَّقسيم العلميُّ المشهور، توحيد (الرُّبوبية والألوهية وتوحيد الأَسماءِ والصِّفَات).

أمَّا الحديث عن (مَقَامِ التَّوحيد) في هذا الكتاب؛ فلا علاقةَ له بالمفاهيم الاصطلاحيةِ المتعلِّقَةِ بالدَّرسِ العَقَدي، وإنما هي شَذَرَات تَدَبُّرِيَّة تُعَالجُ قَضَايا التَّوحيد بوجهٍ شَامِل؛ من خِلالِ النَّظَرِ في الآياتِ القُرآنيةِ واستنطاقِها بما يُعَزِّز اليقينَ لدى المتلَقِّي. كالحديثِ عن بَصَائِرِ الإله في الكِتَابِ المسطُور والمنظُور، وهما أَصْلُ الوحي وأَسَاسُ التَّوحيد، وكذا، إبصار الإِرشَادَاتِ الإِلهيةِ التي تقُودُ العَقْلَ

إلى العِلم الصَّحيح، وإلى استخدام ثَمَرَاتِ العِلمِ استخدامًا سَليمًا، عن طَرِيقِ تحديدِ مَسَارِ العَقلِ وغَايَاتِ المعرفةِ وميادينها.

والحديث عنِ الإذعَانِ للنَّصِّ القُرآنيِّ المنزَلِ من عِندِ الإله، والوقوف معَ الكِتَابِ في حَيَاةِ الأَنبياء وعلاقته بالهدايةِ الإلهية؛ باعتباره وثيقة التَّوحيدِ العُظمى.

وقد بَيَّنتُ بوضوحٍ لا غَبَشَ فيه، أنَّ سَطْوَةَ الإيمان إذا اخترقَت حُجُبَ القلب، لا يقفُ في وجهها شيء، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [سورة طه: 72].

كما تحدثتُ عن الاستعلاءِ الإيماني المنبثقِ من نوُر التَّوحيد لحَمَلةِ الرِّسَالة، ووقوفهم في وجهِ الطُّغيان. وقد أَرشَدَ الله الإنسان إلى الأخذِ بمنهجِ التَّوحيد، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19]. حيثُ أَرسَلَ الرُّسُلَ تَترى تُبَشِّرُ الأَقوامَ بمنهاجِ الإله القائمِ على التُّوحيدِ الخالِص، تذكيرًا بحقائقِ الاعتقادِ حينما يأتي عليها التَّنَاسي، أو تجري عليها عَواملُ التَّحريفِ والتَّبدِيل، وتشريعًا مُستَجدًّا للسُّلوكِ بحسبِ ما تنقلبُ إليه حياة الإنسان من أَطوارٍ في سُلَّمِ التَّرَقي والنضج العقلي والاجتماعي.

وسيجد القارئ حَدِيثًا عن فَسَادِ الأَفكَارِ والتَّصورات التي لم تنهلْ من مَاءِ التُّوحيد، ولم تَتَعَرَّض لضِيَائِه العَظِيم، وهَكَذَا، كلَّما ابتعَدَ الإنسان عن حقيقةِ التَّوحيد، اشتدَّ به الانحدار والسُّقُوط، وكَفَى بمقَامِ التَّوحيدِ عَاصِمًا من كلِّ ذلك.



كفاية النّورِ الخَالِد

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 51].

لقد صُدِمَت قريش بسطْوةِ الكتابِ الخالد، فتنكَّروا له، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [سورة فصلت: 26]. ونسبوه إلى الشِعْرِ ولم يكنْ كذلك، ونسبوه إلى النَّثْرِ وشَتَّانَ بينهما، ووصفوه بالسَّجْعِ، وأنزلوا به أوصافًا متعدِّدة تجافي الحقيقة.. لكنَّ القرآنَ كانَ خِلافَ ذلكَ كلِّه!

جاءَ إليهم يحمِلُ هدايةَ السَّماء، فأعرضوا عنها، وجَاءَ مُتَحَدِّيًا، فعجزوا عن مجاراته ولو بآيةٍ منه، نَزَلَ إليهم معجزةً خالدة، باقيةً ببقاءِ الكَوْنِ والخليقة، ورحمةً للإنسانِ المهدور؛ المنسيِّ في رِمَالِ الصحراءِ الحارقة، جاءَ ذِكْرًا لمن تَشَبَّثَ به، ونُورًا لمن استنارَ بضيائه!

كانتْ (قريش) تُدْرِكُ كلَّ ذلك، وهم أكثر من عَرَفَ حقيقةَ القرآن، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل: 14]، لكنَّهم أَصَرُّوا على المضِيِّ في دُروبِ الجاهلية، فاستبدَّ بهمُ الكِبْر، وأعماهمُ الهوى، وطَاشَ العقل القُرَشِي، ولم يجد ما يَعِيقُ به دعوة النُّور إلا سؤالَ الداعيةِ الأول؛ علاماتٍ وآياتٍ مُعْجِزةً يرونها، يحسُّونَها بأيديهم، كمثلِ الأُمَمِ السَّابقةِ التي نزلت عليهم الآياتِ والمعجزات، دليلًا على صدق النبوَّة وصاحبها!

فأيُّ حماقةٍ تلكَ أن يُطالبَ الإنسانُ بآيةٍ عندما لا يكونُ عالم الخليقة نفسه شيئًا سوى آياتٍ ومعجزاتٍ عظيمة! لقد عَلَّمَ محمدٌ ﷺ قومه في عَصْرٍ كانت تسودُ فيه السَذَاجة وسرعة تصديق الخوارق، احترامَ نظام العَالَمِ الرَّاسخ الذي لا يقبلُ الخلل، وهو احترامٌ قادَ المسلمينَ فيما بعد نحو العلوم قبل أن يتَّجه إليها غيرهم بزمن.

ولهذا، حاجَّ قومَه وقَدَّمَ لهم القرآن المبين، آيةً وعلامةً وكبرى[1].

---

(1) يقولُ عالمِ الأديان البرفسور هوستن سميث: «رفضَ محمدٌ أن يستغلَّ سذاجة البشر وسرعة تصديقهم، وقال للوثنيين المتعطشين إلى الآياتِ والمعجزاتِ الخارقة، بكلِّ صراحةٍ ووضوح: «لم يرسلني الله لصنعِ العجائبِ والخوارق وإنَّما أرسلني للإرشادِ والهداية...» ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [سورة الإسراء: 93]. ينظر: «أديان العالم» د. هوستن سميث، تعريب وتقديم: سعد رستم، ط/ 3، دار الجسور الثقافية، حلب: 1428هـ - 2007م، ص: 472.



وقد رَدَّ الله عليهم هذا الطلب القاصر، والتَّصور الباطل، والزُّهد في الآيةِ العظمى التي بينَ أيديهم، والرغبةِ عن اتِّباعِ الكتابِ المُنزَل، المعجزةِ الكُبْرى، التي تلقَّاها الإنسانُ منذُ فَجْرِ الخليقة!

قَالَ لهم مُوَبخًا ومُعَاتِبًا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة العنكبوت: 51]. وفي هذا الردِّ إنكارٌ عليهم أن يطلبوا آيات مع هذه الآياتِ التي تُتْلى عليهم.. إنها آيات لا تغربُ شمسها، ولا يخبو ضوؤها أبَدَ الدَّهْر..!

ألم يَكْتَفِ هؤلاءِ بهداياتِ هذا الكتاب؟ ألم يكفهم سطوته التي أدهَشَتِ العَرَبَ، أرباب اللغةِ والأدبِ والفصاحةِ والبيان؟!

ألم يكفِهم كتابٌ خالد، اكتنزَ هدايةَ السَّماء، واستوعبَ نبوات الأرض، يُتْلى عليهم، يَضُمُّ بينَ دفتيه حقائقَ الكَوْنِ والإنسان، وصلاح النَّفسِ والقلوب، وشفاء لأمْراضِ الجاهلية، وفيه عَرْضٌ مُبْهِرٌ لتاريخِ الأُمَمِ ومآلاتها، وأسباب النَّجاةِ والهلاك، وسنن التغيير، وتقلُّبَاتِ الأيَّام، وشرف التمسُّكِ به، وأَخْذِه بقوَّة؟!

ولقد استشعرَ سيِّد -رحمه الله- هذا الإنكار، وظَهَرَ جليًّا وقْعُ الآيةِ في قلبه، فَتَرْجَمَ ذلكَ في ظِلاله، فقالَ مُسْتَنكِرًا: «أولم يكفهم أن يعيشوا معَ السماء بهذا القرآن؟ وهو يتنزَّلُ عليهم، يحدثهم بما في نفوسهم، ويكشفُ لهم عمَّا حولهم ويشعرهم أنَّ عينَ الله عليهم، وأنه مَعْنِيٌّ بهم حتى ليحدثهم بأمرهم، ويقصُّ

عليهم القصص ويعلمهم. وهم هذا الخلق الصغير الضئيل التائه في ملكوتِ الله الكبير»[1].

لقد جاءَ الكتابُ إذن، يحملُ بينَ راحتيه شَرَف القوم، ويُعلي من مكانةِ الإنسان، ويرفعُ عنه الظُّلْمَ والظَّلام، جاءَ تاريخًا جديدًا للبشريةِ الحائرة، التي تعيشُ في تيهٍ وبُؤسٍ وشقاءٍ وانحدار، جاءَ لإعادةِ تنظيمِ العَالَمِ البائس؛ القائمِ على (ثنائيةِ القوَّة والضَّعْف)!

نَزَلَ إليهم ليُعيدَ للإنسانِ كرامةً سُلِبَت، وحريةً فُقِدَتْ، وشرفه المدفون في ركامِ الجاهليةِ والكِبْرِ والطُّغيان. لكنَّ العَقْلَ (القرشي) المتشبِّع بالطغيان، أبى إلا أن يحجُبَ (نُورَ الكتاب) بيديه الصغيرتين، وإنِ استَيْقَنَ عظمته الفريدة في أعماقِ نفسه، لكنَّه داء الظُّلم والكِبْر والجحود! لقد أتى ليُعلي ذكرهم، لكنهم أبوا ذلك، لقد نَزَلَ بهمُ الخذلان، ورُفعتْ عنهم يدُ التوفيق.. ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 10]. غابَ العقل، ولم يدركوا حقيقةَ هذا التَّكْريمِ الأعظم!

فجميع ذلك يكفي من أرادَ تصديقَ الحق، وعَمِلَ على طَلَبِ الحق؛ فلا كفى الله من لم يكْفِه القرآن، ولا شفى الله من لم يشْفِه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى؛ فإنه رحمةٌ له وخَير؛ فلذلكَ قال:

(1) «في ظلال القرآن» سيد قطب، ط/ 32، دار الشروق، القاهرة، 1423هـ- 2003م. (5/ 2747).



﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة العنكبوت:51].

ولو تأمَّلَ قليلًا من سَألَ اللهَ (علاماتٍ وآياتٍ تُرى)، ومعجزة محسوسة مُشاهَدَة؛ لأدركَ أنها (آيات) تَزولُ وتنتهي بزوالِ (الدَّهشة) التي رافقتْ وقوعها؛ وأنَّ الكتابَ الذي بينَ أيديهم أعظم عَلامَةٍ على صدقِ النُّبوةِ الخاتمة، وأجملها، وأحسنها، وأكملها، لا تنقطعُ الدهشة عنه، فهو كتابٌ مُدْهِش، ومعجزة مُوغِلٌ أثرها في النَّفس، والعَقْل.. لا ينقطعُ أوار نوره، ولا حَدَّ لضيائه!

ولمَّا لم تكتفِ (قريش) بالقرآنِ الكريم، تاهت، وأضَلَّها الخسرانُ والضَّياع، وتُوِّجَ المتَّبِعُونَ بالفَضْلِ العظيم! ولمَّا لم تكتفِ الأمَّة -اليوم- بالقرآنِ الكريم، ضَاعَت، وتَاهَت، وانزوت، وشَقِيَتْ، وباتَتْ عُرْضَةً للتشظِّي والنِّسيان، ورُميتْ في غَياهِبِ الانحدار، تبحَثُ عن النُّور طَلَبًا للخروج، لكنَّها لمَّا تخرجْ بعد!

الإذعان للكِتَابِ المُنْزَل

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: 7].

تَستوقِفُني هذه الآية كثيرًا؛ لأنها مَدْخَلٌ للوقوفِ على حقيقةِ الكِتَابِ المُنْزَل، وطبيعةِ المتَلقِّي لفيوضه وأنواره؛ فقد بَيَّنَ الله تعالى أنَّ النَّصَّ القرآني الخالد منه آياتٌ مُحكَمات، وسَمَّاها أُمَّ الكِتَاب، فهي آياتٌ واضحات الدِّلالة، لها مركزيةٌ كُبْرَى في آياتِ القرآن.. وهي أصْلُ الكتابِ ومعظمه، والمرجعُ عندَ الاختلافِ والتَّنَازُع.. وهناكَ آياتٌ متشابهات.. تحتملُ فُهُومًا مُتَعَدِّدَة، وتحملُ أوجهًا مختلفة، تَلْتَبِسُ على كثيرٍ منَ النَّاس.



وفي هذا النَّوعِ منَ الآياتِ؛ يجدُ الذينَ في (قلوبهِمُ زيغ) مَرتَعًا للعَبَثِ بالنَّصِّ القرآني، يأخذونَ المتشابه، يضربونَ بعضه ببعض، ويرغبونَ عنِ المُحْكَمِ الواضحِ الدِّلالة، وما ذاكَ إلا رغبةً منهم في الفِتنة، وصرفِ الألفاظ عن ظاهرها وحقيقتها، دونَ بينةٍ وإحكام؛ لتتَوافَقَ مع أهوائهم ومقالاتهم البَاطلة، وشهواتهم ومَيْلِهِمُ الفِكْريِّ المنحَرِف!

والحق، أنَّ تأويلَ النَّصِّ القرآني لا يعلمُ بحقيقةِ معناه المتشابه على الوجه المراد إلا من أَنْزَلَه..، وهذه الحقيقة يُؤمِنُ بها حَدَّ اليقين (الرَّاسخونَ في العلم)، الثَابتونَ المتمكنون، من يجمعونَ بينَ المُحْكَمِ والمتشابه، ويرجعونَ الفَرْعَ إلى أصله..، فَتُفتَحُ لهم المغاليق، وتَتَلاشى أمامهم بَهارِجُ الشُبَه، ويظهرُ النَّصُّ جَليًّا مُشرِقًا، فيصلونَ إلى المعنى المراد!

ولو تأَمَّلْنَا، لوجدنا أنَّ لَفْظَ (الرُّسُوخ في العلم) لم يُذكَر في القرآنِ الكريم إلا في هذا النَّص، وفي آيةٍ أخرى في سورةِ النِّسَاء، في وَصْفِ أهلِ العلمِ من اليهود الذين آمنوا وصَدَّقوا بما أُنْزِلَ على محمدٍ ﷺ، وصَدَّقُوا من قبل بـ (التَّوْرَاةِ والإنجيل) المُنزَلةِ على الرُّسُلِ السَّابِقين ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّـٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: 162]، **وهو سِيَاقٌ يُؤَكِّدُ حقيقةَ الإيمانِ والتَّسليم والإذعانِ بكُلِّ مَا أنزَلَ الله.**

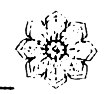
والوصْفُ هنا بـ (الرُّسُوخِ في العِلْم) له وَقْعٌ في النَّفْس؛ فقد

أهْدَرَ ظنونَ أهلِ الشُّبُهَات، من يعيشونَ على فكرةِ النَّصِّ المفتوحِ الذي لا خِطَامَ له ولا زِمَام، من يُهدْرونَ المُحْكَمات، ويصفونَ من آمَنَ بكلِّ ما أنزله الله بـ (الجمُود التَّقَوْقُع)! بينما وَصَفَهُم مُنْزِلُ الكتابِ الأعظم بـ (الرُّسُوخ)؛ انتصارًا لهم، وتأييدًا لمكانتهم العِلْمِيَّة، ولأنهم صَدَّقوا ما قَالَه، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

ثم خُتمتِ الآية بحقيقةٍ أخرى، وفكرةٍ صادمة؛ لأصحابِ الأهواءِ والشَّهَوَاتِ والشُّبُهَات. فَقَالَ تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7]، والمعنيُّ بهم هنا: أصحاب العقولِ السَّليمة، والأفهامِ اللامعة.. الذينَ يُدركُونَ حقيقةَ الفرق بينَ التَّسليمِ المطلقِ للإله، والإيمانِ بما جَاءَ به، مع إِعْمَالِ العَقْل، وِفْقَ الرُّؤيةِ العلميةِ القَائِمَةِ على النَّظَرِ في الكتابِ بمُحْكَمِه ومتشابهه، وَرَدِّ الأخيرِ إلى الأوَّل، وبينَ النُّفُور من آياته وتطويعها وَلَيِّ أعناقها!

وخَتَمَ الله الآيَةَ بِذكْرِ أُولي الأَلْبَاب، لتعَاضُد الرُّسُوخ في (العِلمِ مع العقل)، وكَذلكَ نَزَعَ صفةَ (العَقل والتَعَقُّل) عن أصحابِ الشُّبَهات، من يزعمونَ أنهم أربابها ودعاتها! فجاءَ ختام الآية مبينًا أنَّ (اتِّبَاع المتشابه) من أوصافِ أهلِ الآراءِ السقيمةِ، والعقولِ الواهية، والقصودِ السيئة، الموغلينَ في البُعْدِ والزَّيْغ!

والحقيقة أنَّهم ليسوا من أهلِ العُقولِ والألباب؛ ولو كانوا كذلكَ لأذعنوا للكتابِ المُنْزَل، دونَ الإيمانِ ببعضٍ ما يَتَّفِقُ مع



أهوائهم، وتركهم ما لا يوفقها، ولهذا وقعوا في الزيغِ والضَّلالِ والانحرافِ والفتنة.. ومن أجلِ ذلكَ؛ أَلْهَمَ الله عباده المؤمنين، الرَّاسِخِينَ في العلم، أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8]، فالرُّسُوخُ في العِلْمِ هدايةٌ إلهية، والزَيْغُ خُذْلانٌ نَابعٌ من عَدمِ الإذعانِ لحقيقةِ النَّصِّ الإلهيِّ الخالد.

الكتاب

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 89 - 92].

في سورةِ الأنعام، يرصُدُ النَّصُّ القرآني معركةَ الوعيِّ الكبرى التي خَاضَها النَّبيُّ إبراهيم عليه السلام مع قومه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾، وخُتِمَتِ الآياتُ بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ

حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 83]، في دلالةٍ على انتصارِ الوعيِّ المسنودِ بحجَّةِ الكتاب.

ثمَّ ذَكَرَ الله دَرْبَ الأنبياء، والمواهب التي مُنِحَت لهم، وسَمَّاهم بأسمائهم.. وخُتِمَت تلكَ المنَحُ والمواهب، بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ [الأنعام: 89].

ابتَدَأ بالكِتَاب، كشِرْطٍ أوَّلٍ لبُلوغِ الحُجَّة التي امتلكها النَّبي إبراهيم ﷺ، وطَريقٍ للهِبَاتِ والمِنَحِ والفَتحِ.. ثم جاءتِ الآية التي تليها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: 90]، أي: أولَئِكَ الذينَ هَدَاهُمُ الله، بأن أرشَدَهُم طَرِيقَ الهداية، وَوَفَّقَهم للحُجَّة، وأعطَاهم المواهب بفضلِ الكتابِ الذي حملوه.. وبما يَتَّسِقُ معه، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ﴾ [مريم: 12]، فَأخْذُ الكِتَابِ بِقُوَّة؛ سَبَبٌ للهِدَايةِ، وطريقٌ للنَّجَاةِ، ومَنَاطٌ للاقتداء.

لم يَتحَمَّل المشركونَ في مَكَّة أن يكونَ الكتَابُ المُفضِي للنُّبوَّة، هو دَرْبَ النَّجَاةِ والهداية.. فجعلوا كلَّ ذلكَ خَلْفَ ظهورهم، وقرَّروا تمزيقَ النُّور المنبعثِ من بَطْنِ الكتاب، وما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْره فيما وضعه في الكتبِ التي أرادها أن تكونَ طَوْقًا لنَجَاةِ البَشَريَّة من الهلاكِ والضَّيَاعِ والتَّلاشي..، فأنكروا النُّورَ الذي نَزَل، وقَالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ إمعَانًا منهم في الهروبِ من سَطْوَةِ الكتاب..!

عاتَبَهم الله في نفسِ الآيةِ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى﴾؟ ثُمَّ ختمَ هذا التَّسلسل بالتَّذكِيرِ بالكِتَابِ الخالد، الذي لو أخذوا به لكانوا في مستوى الاقتداء لمن يأتي بعدهم، وقد نَالَ هذا الشَّرَف من أدرَكَ قيمةَ الكتَابِ، وهمُ الرَّعِيلُ الأولُ من الصَّحَابةِ رِضْوَان الله عليهم. قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: 92]، هذا الكتابُ الخاتم مُصَدِّقٌ للكُتُبِ السَّابقةِ، فالكتابُ يخرجُ من مِشكاة واحدةٍ، ومتى أَخَذَه المرء بقُوَّةٍ؛ ارتَقَى لسُلَّمِ الهدى الإِلهي، المنتَظِم فيه الأنبياء ومن سَارَ على دربهم.

وقد ذُكِرَ الكتابُ في هذا المقطع القرآني ثلاث مَرَّات، في **الموضعِ الأَوَّل**: الكتَابُ العَلَم[1]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: كِتَابُ كلِّ نبي، سَواء ممن بُعثوا بكتابٍ أو لم يبعثوا، فهم حَمَلَة للكتاب، **وتلكَ صفة أولى حَمَلَها الأنبياء**، وقيلَ للنَّبيِّ والأمَّة من بعده: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90].

وفي الموضع الثاني: التَّورَاة، وهو إِشَارَة للكُتُبِ السَّماوية، ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى﴾ [الأنعام: 91].

---

(1) يقول ابن عاشور: «والمراد بالكتاب الجنس: أي الكتب. وإيتاء الكتاب يكون بإنزال ما يكتب، كما أنزل على الرسل وبعضِ الأنبياء، وما أنزل عليهم يعتبر كتابًا؛ لأنَّ شأنه أن يكتب سواء كتب أم لم يكتب». ينظر: «التحرير والتنوير»- محمد الطاهر ابن عاشور- ط/ دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس: 1997م. (6/ 203).



وفي الموضع الثالث: القرآنُ الكَرِيم، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: 92].

ثم في رَأسِ الصَّفْحَةِ بعدَ تلكَ الآياتِ التي ذكرتِ التَّلاحمَ بينَ أَنوارِ الكتَابِ المنزل، وهدايةِ النُّبوة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 95-96]، وتلكَ إِشَارةٌ للقِرَاءَةِ والتَّأمُّلِ في كتَابِ الكَوْنِ المنظور، بعدَ الإِشادةِ والتَّذكيرِ بشَرَفِ الكتَابِ المسطُور.

«وهكذا تتكشَّفُ للنَّاظِرِ في القرآنِ آفاقٌ وراءَ آفاق، من التَّنَاسُقِ والاتساق: فمن نَظْمٍ فصيح، إلى سَرْدٍ عَذْب، إلى معنى مترابط، إلى نَسَقٍ متسلسل، إلى لفظٍ معَبِّر. واتساقٍ في الأَجزاء، وتناسق في الإطار، وافتنان في الإخراج، وبهذا كله يتمُّ الإبداع، ويتحقَّقُ الإعجاز المدْهِشْ».

بصائرُ الإله!

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: 104].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203].

وردت (بصائرُ) في سورةِ (الأنعَام) في سِيَاقِ الحديثِ عن العَظَمَةِ الإِلهيَّة، وقُدْرَةِ الخالق، وفَلْقِ الحَبِّ والنَّوى، وفَلْقِ الإصبَاح، واهتداءِ الخَلْقِ بالنُّجُوم، وابتداءِ خَلْقِ الإنسانِ من نَفْسٍ واحدةٍ، وخَلْقِ النَّبات، وإنزالِ القَطْرِ منِ السَّماء، ثمَّ خَتَمَ كل ذلكَ بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الأنعام: 101].

وبَعْدَ هذا العَرْضِ المبهر، وَجَّه الله تعالى الخطابَ إلى الإنسان؛



بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ [الأنعام: 104]، ومن خلالِ العَرْضِ السابق لآياتِ العَظَمةِ الإلهية، وعَظَمةِ الخلقِ في الكونِ والإنسانِ والنَّبَات، يتَّضِحُ أنَّ البَصَائِرَ المرادة هنا في هذا السِّياق، هي بَصَائِرُ (الكِتَابِ المنظور)، فمن أَبْصَرَ عَظَمَةَ الخالق، ودَهْشَة الكَوْن، وسَطْوَة الإبداع؛ فقد أَبْصَرَ الحقائق، وأتْقَنَ (قراءَةَ) الكِتَابِ المنظور من خلالِ إبصارِ الإرشاداتِ الإلهيةِ التي تقُودُ العقلَ إلى العلمِ الصحيح، وإلى استخدامِ ثَمَراتِ العلم استخدامًا سَلِيمًا، عن طريقِ تحديدِ مَسَارِ العقل وغاياتِ المعرفة وميادينها.

ثم جاءت بعدها سُورَةُ الأعراف، وفي ختامها وردت (بصائرُ) في نَسَقٍ مُكَمِّلٍ لـ (بصائرِ سورةِ الأنعام)، ابتدأتْ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]، ثمَّ ذكَرَ فضيلةَ اتِّباعِ (الوحي)، فقالَ جَلَّ في عُلاه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: 203].

والبصائرُ هنا: بصائرُ (الكِتَاب المسطور)، الوحي المنَزَّل من السَّماء لإحياءِ الأَرض، وإطفاءِ حَرَائقِ الجاهليَّة، والأَخْذِ بيدِ الإنسانِ إلى طَرِيقِ الحقِّ والسَّلام.

(وإنَّ النَّاظِرَ في القرآنِ الكريم، يُلاحظُ أنَّ مصطلح «الآيات» يُطلقُ على الجمَلِ القرآنية، ونؤمرُ حيالها «بالتَّدبُّر»، كما تُطلقُ على المخلوقاتِ الكونية، ونُطَالبُ إزاءها «بالتَّفكُّر»، وعلى المخلوقاتِ

الحيَّة ولاسيما الإنسان، ونُطَالبُ إزاءها «بالتَّبصُّر»، وعلى القصصِ الاجتماعية، والأحداثِ التَّاريخية، ونُطَالبُ إزاءها «بالاعتبار»).

فـ (بَصَائِرُ الإله) التي أُمِرَ العَبْدُ بأخْذها بقُوَّةِ النَّظَرِ، والتَأمُّلِ، والتَّدَارُس، والتجربة، والتَّدَبُّر، والتَّفَكُّر؛ بصائرُ مُكْتَمِلة لا انفصالَ بينها، فمتى اقتصرَ الإبصارُ على جانبٍ دونَ الآخَر، ظَلَّ (العَمَى) يرتعُ في الثَّغْرةِ التي لم نُنعِمْ فيها إبصارَ الحقائق، ولا اكتمالَ إلا بأخْذِهما معًا!

خُتِمتْ سورة الأعرافِ بنَصٍّ قُرآنيٍّ خَالِد: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]؛ فإذا قُرِئتْ بَصَائِرُ الإله بمفهومها الشَّامل، فأَرْعِ لها سَمْعَكَ وقَلْبَكَ، وأنْصِتْ لوحيِ السَّماء؛ لأنَّكَ إن فعلتَ ذلكَ كنتَ مِمَّن شَمِلتهمُ الرَّحمةُ الإلهية، وكفى بذلكَ مِنَّةً ورحمةً!



بوابة المنحِ الكبرى

قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: 6].

هل شَاهَدْتَ مَعِيَ الحالَ التي كَانَ عليها الصَّحَابة وهم في سَيْرِهم للقَاءِ العَدوِّ الأول، كأنَّما يُسَاقُونَ إلى الموتِ سَوْقًا، الآية تُصَوِّرُ لَنَا تلكَ اللحظاتِ العصيبة التي أُخرجوا فيها وهم كارهونَ لطبيعةِ اللقَاء، فَسَاروا إِليها وكأنَّهم موثقونَ بكلِّ قيودِ الدنيا، وهم ينظرونَ إلى المصيرِ الذي سيؤولون إليه..

أرادت الصورة التي رَسَمَها القرآن لتلكَ الحادثة أن تُظِهرَ لنا مَا كَانَ عليه الصَّحَابة من كُرْهٍ لما هُم مُقْدِمونَ عليه؛ ظَنًّا منهم أنَّ الخيرَ يكمنُ في طَريقٍ غيره..، وتأتي الآيات بعدها لتزفَّ لنا تفاصيل المعركةِ الخالدةِ التي قَلَعت شوكة الشِّركِ والجاهليةِ.. وطَوَت صفحةً سُودَاءَ من كتابِ الأيَّام.

ومن بَدِيعِ مَا كَتَبَه «سيِّد» في تصويرِ انفعالاتِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ واستنطاقِها بدقَّةٍ مُدْهِشَة، وهي تُسَاقُ مُذْعِنةً إلى أرضِ المعركة لملاقاةِ الموت، قوله رحمه الله: «وإنها لحالٌ تتكشَّفُ فيها النَّفسُ البشرية أمامَ الخطَر المباشر ويتجلى فيها أَثَر المواجهة الواقعية -على الرغم من الاعتقادِ القلبي- والصورة التي يرسمُها القرآن هنا جديرة بأن تجعلنا نتواضع في تقديرنا لمتطلباتِ الاعتقاد في مواجهةِ الواقع، فلا نغفل طاقة النَّفس البشرية وذبذباتها عندَ المواجهة ولا نيأس من أنفسنا ولا من النَّفس البشريةِ جملة حينَ نَراها تهتزُّ في مواجهة الخطَر -على الرغم من طمأنينةِ القلبِ بالعقيدة- فحسب هذه النَّفس أن تثبتَ بعدَ ذلك، وتمضي في الطريق، وتواجه الخطَر فعلًا، وتنتصرَ على الهزَّةِ الأولى!»[1].

وإنَّنَا قد نُسَاقُ -في لحظاتٍ عَصِيبة- لأقدَارٍ لا نرتضيها ظَنًّا مِنًّا أَنَّنَا إلى المحِنَةِ نسير، ثم تكُونُ البَوَّابة الكُبْرَى للمِنَح العظيمةَ التي يفتحها الله لك.. فَسَلِّم بالأَمْرِ ظَاهِرًا وباطنًا، وتَذَكَّر أنَّ لَكَ رَبًّا لا يُضِيْعُ أَجْرَ العاملين.

(1) «في ظلال القرآن» (3/ 1480-1481).



مقام الإِله

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41].

إنَّ الخوفَ من مقامِ الإله، يحجزكَ عنِ الوقوعِ في مقامِ الهوى، ومن تَمَكَّنَ في قلبه الخوفُ منَ الله، فقد أَمِنَ وسَلِمَ وفَاز؛ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14].

ومنَ الآياتِ التي تَمْلأ قلبي رهبةً وعظمةً ورجَاءً، هذه الآية المهيبة، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41]، فكلَّما قَرأْتُها أو سَمِعْتُها، بَدَا لي «مَقَام الإِله» الجليلِ العَظِيمِ المهيب، وأيُّ مَقَامٍ أَعْظَمُ من هذا المقام؟!

يخافُ الإِنسانُ من الوقوفِ بينَ يَدَي «مَقَامِ مَلِكٍ أو أمير»،

وهذا أمْرٌ طَبْعِيٌّ يُصيبُ الإنسان، لما خُلِعَ لهم من أوصافِ الرَّهبة وعرامِ المهابة ما تَرْتَعِدُ لها الفرائص، وتذوبُ خَوْفًا من هولها القلوب! فَكَيْفَ بالوقوفِ بَيْنَ يَدَيْ العَظِيم، الذي خَلَقَ الملوكَ والسلاطين؟

كيفَ سَتكُونُ لحظةُ اللِّقاءِ به، والوقوف في مَقَامِه يَومَ الطَّامةِ الكُبْرى؟!

لكلِّ واحدٍ مِنَّا موقفٌ بينَ يَدَيْ صاحبِ المَقَامِ الأعلى؛ ولا نجاةَ إلا بـ «الخوفِ والرَّجَاء»، خوفًا منه ورجاءً فيه!

ولهذا، وَرَدَ في سورةِ الرَّحمن، قَولُ الحَقِّ جَلَّ في عُلاه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46]، والخوفُ من مَقَامِ الإله، وخشيته، وتوقيره، واتِّقَاءِ حرماته، وتعظيمِ شَعَائِره؛ يقتضي الرَّجَاء في رحمته وعَدْلِه. فله جَنَّتَانِ بفعْلِ «الخَوْفِ والرَّجَاء»؛ أورثتاه المَقَامَ الرَّفيعَ عندَ الإله!

إنَّ الخوفَ من مقامِ الإله، مُؤدَّاه نَهْيُ النَّفْسِ عنِ الانحدَارِ في مَسَالكِ الضَّلالِ والهوى. ومن أجلِ ذلك؛ أبَانَ القرآنُ الكَريم حقيقةً من حقائقه العظيمة، مفادها: «**أنَّ مَنْ خَافَ مقَامَ رَبِّه؛ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّه**»! وإنَّ «بُرْهَانَ الإله» الذي يَراه المؤمن، هو ثَمَرَةٌ من ثِمَارِ الخَوفِ من مَقَامِ الإله، ولا يَصِلُ إليها إلا من خَافَ وَوَجِلَ وَوَقَفَ مُتبَتِّلًا على عَتَباتِ الرَّبِّ سُبحَانه!



ذخيرةُ الاستبداد

قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123].

كلَّما قَرأتُ هذه الآية؛ يستوقِفُنِي هذا المقْطَع من قِصَّةِ موسى ﷺ مع فرعونَ وسحرته!

آمنَ «السَحَرَة» عندما وقَعَ الحقُّ وبَطَلَ الإفكُ الذي رَوَّجُوه لبَقَاءِ حُكمِ فرعون رَدَحًا من الزَّمَن..

في هذا المشهدِ المشهود؛ يخرُّ السَحَرةُ سُجَّدًا إيمانًا بِرَبِّ موسى وهارون.. فيشتَاطُ الطَّاغيةُ غَضبًا.. ويقولُ كلمةً ممعنةً في العجب والغرابة؛ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾، أي: آمنتم بإله موسى قبلَ أن آذنَ لكم بالإيمانِ والتصديقِ به!!!

وهل يحتاجُ الإيمانُ إذا مَسَّ شِغَافَ القلب إلى إِذْن؟!

وهل يَكُونُ الإِيمانُ إيمانًا إذا أَذِنَ به الطَّاغية؟!

وهل كَانَ فرعون لِيَأذنَ لهم، أو لغيرهم، أن يؤمنوا بالله وحدَه؛ وهو الذي صَاحَ فيهم بكلِّ كبرٍ وجبروتٍ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]؟!

ثمَّ ما معنى أن يَقُولَ لهم فرعون ذلكَ في تِلْكَ اللحظةِ التي نُكِّسَتْ فيها أَعْلام البَاطِل، ورَأَى الهزيمة المنكَرَة في يوم الزِّينةِ العظيم الذي أَرَادَه يَوْمًا مشهودًا لإِذْلالِ موسى وضَرْبِ الدَّعْوَةِ التي يحملُها...؟!

ما حَمَلَه على قَولِ ذلك؛ إلا دَاءُ الكِبْر، وذخيرةُ **الاستبدادِ** التي يملِكُهَا، وجنونُ العَظَمةِ الذي استبَدَّ به..!

طاشَ عقله في تِلْكَ اللحظةِ الفارقة، ولم يُفَكِّرْ -ابتداءً- إلا في فِكرَة الخروج عن أَمْرِه دونَ «إذنٍ مِنْه».. ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾، وهي كلمة في حقيقتها لا معنى لها إلا تعزيةُ نفسِه ببقاءِ قُوَّتِه وسَطْوَتِه، وإظهارِ القُوَّةِ عليهم، وتملكهم وتملك رقابهم؛ باعتبارهم عَبِيدًا، لا يحقُّ لهم الإيمان دونَ إذنِ الطَّاغيةِ العظيم!

وقد أوْرَثَ «الفِرْعَونُ الأول» الفَرَاعِنَةَ من بعده دَاء الكِبْرِ والطُّغيانِ والاستبدَاد..، وصاحوا كما صَاحَ في نَشْوَةٍ من البَطَرِ والغُرورِ والنِّسيَان.. ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وغَضِبوا على من أذْعَنَ



للحَق، وأسْلَمَ قلبه لدَعْوةِ النُّور.. كيفَ بكم أن تفعلوا ما فعلتم دونَ إذنٍ مِنَّا، وأنزَلوا بهم من العَذابِ والظُلمِ والضَيْم ما أنْزَله الفِرعَونُ بالسَّحَرةِ الذينَ هَدَمُوا بُنيَانَ الطُّغْيَانِ من قلوبهم، وأسْلَمُوا للإلهِ الحَق.

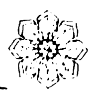
﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: 124] قَالها مُهدِّدًا، فجَاءَ صَوتُ الإيمَانِ مُدَوِّيًا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه: 72]. عِزَّة في الشُّعُور، وتَمَكُّنٌ منَ الإِيمان، ويَقِينٌ بَلَغَ ذروته في العُلُو.. واستسلامٌ لمن بيده الملكوت!

ولا زالَ السَّائِرونَ في دَرْبِ الإيمان على نهجِ من تَرَكَ السِّحر ورَفَضَ الطُّغيان.. يواصلونَ النِّضَالَ والجهاد.. ويقفونَ في وجه الطُّغْيَان.. لا زالوا يَصْرخُونَ في وجوههم: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾.

وعيدُ الطغاة!

في سورةِ الشُعْرَاء، قالَ اللهُ تعالى على لِسَانِ فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29].

الخطابُ هنا لِنَبيِّ الله موسى ﷺ. وفي السورةِ ذاتها، قالَ الله على لسانِ قومِ لوط ﷺ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [سورة الشعراء: 167]. هَدَّدَ فرعونُ موسى بـ «السِّجْنِ والتَّغييبِ» في حَالِ اتخذَ إلهًا غيرَه... وأَصَرَّ على تبديدِ «الوهم» الذي سَرْبَلَ روحَ «الطَّاغية»... ولم يقل له لأَجعَلَنَّكَ منَ «المخرجين»؛ كانَ يخشى من خروجه، ففي المرةِ الأولى خَرَجَ موسى خائفًا يترقبُ وعادَ قويًا يحملُ رسالةَ السَّماء... كانَ يُدركُ حَجمَ المعجزاتِ والبينَاتِ التي أوتيها موسى ﷺ، فلو أُخرِجَ وطُرد لعَادَ إليه بأُمَّةٍ يحملونَ مَشَاعلَ التَّوحيد واليقين!!!



أمَّا نبيُّ الله لوط ﷺ فهُدِّدَ بالطردِ والإخراج؛ لِيَخْلُوَ (جوُّ) الجريمةِ من صوتِ النَّقَاءِ المزعج، من سوطِ الضميرِ الذي يضربُ به «لوط» ظهورَ قومه صباحَ مساء.. ولهذا، فكَّروا بإخراجه دونَ خشيةٍ من دلائل ومعجزات وبينات قد يعرضها على قومٍ آخرين، فكانَ قرارُ الإخراجِ أصوب من قرارِ السِّجن! لأنَّ مجردَ بقائه ولو خلفَ القضبان؛ يشعرهم بقذارةِ الفعلِ الذي يرتكبونه دونما خجلٍ أو حياء..!

لقد تحوَّلَ لوط ﷺ في قومه إلى «أيقونةٍ» للطُّهر والنَّقَاء.. ولا حَلَّ إلا بإخراجه.. ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 82].

وتأكيدًا على ما ذكرتُ.. فقد وَرَدَ في سورةِ الأنفال، العقوبة والمكر اللذين فكَّر بهما طغاة قريش؛ لإسكاتِ صوتِ الدَّعوة، فقالَ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ﴾ [سورة الأنفال: 30].. فكانَ القرار «الكيد الأول» هو «السِّجن»، خوفًا منه، وإبعادًا لسطوةِ البيانِ الخالدِ عن أسماعِ الآخرين.. أو قتله للخلاصِ من بقعةِ الضوء التي تُهَدِّدُ ممالكَ الظَّلام.. فبموته تموتُ الدَّعوة، **ويصمتُ صوتُ التوحيد..!**

ثمَّ جعلتِ الآية القرآنية قرار «الإخراج» هو المصير الأخير الذي قد تضطَّرُ إليه يدُ الشَّرِ لحمايةِ الجاهليةِ من التَّلاشي والفناء!

أرادوا أن يقتلوا محمدًا رسول الله، وأرادَ الله له شيئًا آخر..

أرادوا وأْدَ الدَّعوة بوأدِ صاحبها.. وأَرَادَ الله له مصيرًا آخر.. كانَ «الخلاص» للعَالَمِ التَّائه، والنَّجاة للإنسانِ الغارقِ في أوحالِ الجاهليةِ والنِّسيان.. لم تدرك قريشُ حقيقةَ الدَّعوة وصاحبها.. فكرَّسُوا كلَّ طاقتهم لإيقافها.. وأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره..!



طغيانُ الأتباعِ والجماهير!

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الزخرف: 51].

وقفَ الطاغيةُ أمامَ الجماهير، نادى عليهم، احتشدُوا لسماعِ صاحبِ المقامِ الأسمى..! وجَّه الخطاب إليهم: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾؟ ألستُ الحاكمَ الأعلى، لي القدرة المطلقة، والسُّلطَانُ الأعظم، ألا ترونَ الأنهارَ تجري من تحتي؟!

ألا ترونها مذعنةً لأمري، خاضعةً لسطوتي؟ ألا تبصرونَ كل هذه الدلائلِ القاطعةِ التي تنطقُ بملكي وعظمتي وألوهيتي؟!

ثم خاطبهم مرةً أخرى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [سورة الزخرف: 52].. هل ثمة مقارنة بيني وبينَ

هذا المَهِين الضعيف الشَّريد، الذي لا يُحسِنُ الكلام، ولا يستطيعُ أن يُخاطبكم كما أفعل!

لقد اتخذَ «فرعون» من المُلكِ والسُّلطَان ذريعةً لممارسةِ الطُّغيان، وادِّعَاء مقامِ الإله، وجيَّرَ المنحَ الإلهية لخدمةِ مشروعه، فجعلَ منَ الأنهار الجارية من تحته دليلًا على عُلُوِّه ورفيعِ مكانته.. كما جَعلَ من الضعْفِ البشريِّ لنَبيِّ الله موسى عليه السلام في الخطابِ والكلام، دليلًا أيضًا على تفوقه وتميزه.. وهو أَمْرٌ خَلْقيٌّ لا يُعَابُ الإنسانُ عليه..

وهذه الدَّلائل التي وضعها فرعون أمامَ الأتباعِ والجماهير، دلائل ساقطة.. لا ترقى لشيء، ولهذا، أغرى قومه بهذا الهراء، وصدَّقه القطيعُ المحتشِد.. فقالَ الله عنهم: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ [سورة الزخرف: 54].. إنَّ الطاعةَ العمياء، والإذعان لكلِّ دَعِي، والرَّكض وراءَ كلِّ مُتَسَلِّط.. صفاتٌ لا تنفَكُّ غالبًا عن الجماهيرِ المغلوبة، القابلةِ للاستخفاف، وهم «مَادَّةُ الطُّغْيان» وسر قوته وبقائه!

إنَّ ما لا يُدركه الأتباع والجماهير، أنهم أيضًا واقعونَ في الطغيان، جنبًا إلى جنبٍ مع «الطَّاغيةِ الأكبر» الذي استخفَّ بهم، وطغيانُ الأتباعِ والمحكومين، هو طغيانُ الضعفِ والإسرافِ في العبودية، والتَّبعية التي تخرجُ عن حدِّ الاعتدال، فالطغيان: مجاوزة الحدِّ المقبول سواء بزيادةٍ أو بنقصان.. وكما يكونُ الطغيانُ



من القوة، فقد يكونُ من الضعف، وهذا ما يُفهمُ من قولِ الله تعالى، على لسانِ الكبراء والسادة، للضعفاءِ والأتباع: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ [سورة الصافات: 27-30]، أي: تجاوزتم الحدَّ في العصيانِ بسببِ ضعفكم وذُلِّكُم، الذي أورثكَمُ الضلالَ والخسران.

ومما يؤكدُ ذلك.. ما جاءَ في سياقِ الحديثِ عن الأقوامِ السابقينَ الذينَ أهلكهمُ الله، لم يتم التفريق بينَ (المستكبرين) الملأ، (والمستضعفينَ) الأتباع، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء: 123]، و﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [سورة غافر: 5]، فكلهم مكذِّبون، وجميعهم طاغون، قويهم وضعيفهم. ولأنَّ التذللَ للطغيان، واتباعَه، هو بحجمِ الطغيان نفسه.. سواء بسواء. والمتبوعونَ الطغاة يُحسنونَ الاستخفاف بالأتباع، فيستخدمونهم في الدنيا لتحقيقِ مشروعِ الطغيانِ والاستكبار.. ويومَ القيامةِ يتخلَّونَ عنهم.. يتركونهم لمصيرهم، ويتبرأونَ من ضعفهم وتبعيتهم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة البقرة: 166-167].

وفي سياق الحوار بينَ التَّابعِ والمتبوع، يُصَوِّرُ القرآن الكريم ما يؤول إليه طغيان الضَعْفِ والتَّبَعية، يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سورة سبأ: 32]، لم نمنعكم عن اتِّباعِ دعوةِ الحق، ولم نَصُدَّكَم من اللحاقِ بركبِ النُّبُوَّة، لم نقف بينكم وبينَ هدايةِ السَّماء.. ولكنَّكم كنتم (مجرمين) في حقيقةِ الأمر، تَلَبَّسْتُم بالظُّلم والفَسَادِ والطُّغيان، فَعَلامَ اللومُ والعَتَب؟!

وَوَصَفَ الله الأتباعَ والجماهير المحتشدة تأييدًا للطاغية؛ بـ (الفِسْق)، ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [سورة الزخرف: 54]، خارجينَ عن طَاعةِ الإله، منتظمينَ في سِلْكِ البَاطِل.. ألا بُعْدًا لهم!

هنالك نزَلَ العَدْلُ الإلهيُّ بهم، وجَرَتِ الأنهار من فوقِ الطَّاغية والأتباع، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [سورة الزخرف: 55]، وتلكَ حقيقة قرآنية، وسُنَّة إلهية في جميعِ الأمم السَّابقةِ واللاحقة، أنَّ العدلَ الإلهي، نَزَلَ وينزلُ على كلِّ من أغضَبَ الإله، ووَقَعَ في (الطُّغيانِ) وتَذَلَّلَ له. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلا﴾ [سورة الأحزاب: 62].



فساد الأفكار والتصورات

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: 103-104].

ينقلُ القُرآنُ الكَريم حِكَايةً على ألسِنَةِ الظَّالمين والعُصَاة في وصفهم لحرَكَةِ الأنبياءِ والمصلحين بـ «الفَسَاد»، كوصفِ أتباعِ فرعون لدَعوَةِ موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [سورة الأعراف: 127].

ونَقَلَ القُرآنُ حكَايةً عن فرعون، قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [سورة غافر: 26].

وهذه الآيات تؤكِّدُ بوضوحٍ فَسَادَ التَّصَوُّرَات، والخلَلَ الفِكريَّ والمفاهيمي الذي يعيشه فرعون وأتباعه، فهم مَنْ سَفَكُوا الدِّمَاء المحرَّمَة، وأفسدوا في الأرض، واستَعْبَدوا بني إِسْرَائِيل، ومعَ كلِّ ذلك، لا يزالُ «الطَّاغِيَة» يَعتقدُ أنَّ موسى عليه السلام يسعى للفَسَاد، ويخشى منه أن يُظْهِرَ الفَسَاد، فيشيع في قومه، وفي إعلامه، الخوفَ من فَسَادِ مُوسى عليه السلام! في صُورَةٍ جَليَّةٍ لتزويرِ الحقَائِق، وقَلْبِها، وفَسَادِ التَّصَوُّرَاتِ التي يحملها.

كَمَا بيَّنَ القُرآنُ أنَّ المنافقينَ والمنحرفينَ عنِ الصَّلاح، يُعانونَ من النِّفَاق، وفَسَادِ التَّصَوُّرَاتِ والأفكار، فهم مع فسادهم، يتصورونَ أنَّ مَا يقومونَ به صورة من صورِ الإِصلاح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [سورة البقرة: 11].

وهذا النَّوعُ من الفَسَاد تَسَبَّبَ في كوارثَ عظيمةٍ على مَسيرةِ الأمَّةِ الحضَارية، وهَدْم طريقها نحو الاستخلاف، وقَوَّضَ مَسِيرةَ التَّمكينِ والنَّهضة؛ لأنَّ النِّفَاقَ شَرٌّ محض، تقفُ وراءَه أيادٍ خفيَّة، وفَسَاد التَّصورات والأفكار المنحرفة فَسَادٌ عَريضٌ؛ لاعتقادِ صاحبها صوابَها ويقينه بها، وما فتنة «الخوارجِ والفِرَقِ المنحَرفةِ» على مَرِّ التَّاريخ إلى يومنا هذا، إلا بسببِ فَسَادِ التَّصوراتِ والأفكار التي يَعتنقونها، وتبعيةٍ مقيتةٍ ينتهجونها، ويَظنُّونَ أنهم يحسِنُونَ صُنْعًا.



وقد بَيَّنَ النَّصُّ القُرآنيُّ فَسَاد الأفكار والتَّصورات لدى كُفَّار قُرَيش، فقد كانت أفكارهم ممعنةً في الانحرافِ والفَسَاد، عجبوا من النَّبي ﷺ، أن دعاهم **لكلمةِ التَّوحيد**، وعبادةِ الإله الفَردِ الصَمَد، فقالوا في غَرَابةٍ وتعَجُّب: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: 5]، ولولا فَسَاد تصوراتهم؛ لأدركوا أنَّ تَعَدُّدَ الآلهة هو العَجَبُ العُجَاب! وضَرْبٌ من الخَبلِ وغيابِ العقل!

وقد ذَهَبت بهم تصوراتهم الفاسدة، للاعتقادِ بأنَّ عِمارةَ المسجدِ الحرام، وسقاية الحجَّاج، وأعمال الضيافة والرفادة التي كانوا يقومونَ بها، هي مقابلَ الإيمان بالله تعالى، والانحناء لتعاليمِ الرِّسَالةِ الخالدة.. والإذعان لدعوةِ محمدِ بن عَبدِ الله.. واكتفوا بذلكَ كَعملٍ يُضَاهُونَ به غيرهم، فَرَدَّ الله عليهم هذا الفَهْم العَقِيم، والتصورَ الفاسدَ.. كَما جَاءَ في سورةِ التَّوبة: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة التوبة: 19].

ثمَّ بيَّنَ القرآن الكريم التَّصوُّر الإلهي الصحيح لمفهومِ العمارة، رَدًّا على تصوراتهم المنحرفة، وإشَادةً بأهْلِ الإيمان، قَال تَعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة التوبة: 18].

أرَادَ الله تعالى أن يلفِتَ الأنظار إلى التَّصَوُّر الإسلامي الشَّامل، الذي لا يقومُ على التَّجزئةِ في الفَهْم، دونَ النَّظَر إلى الصورة الكُلِّيَّة.. والمقاصدِ الغَائِيَّة.. والأخذ ببَعضِ المفاهيم دونَ غيرها.. والإيمان ببعضِ الكتاب والكفر ببعضه الآخر.. ولهذا، بَيَّنَ لهم أنهم ليسوا من عُمَّارِ مَسَاجِدِ الله، ولا من أهلها الذينَ هم أهلها، وإن زعموا ذلكَ وادعوه.

وإنَّ من أعظم ما أصَابَ الأمَّة اليوم؛ فَسَاد التَّصورات والأفكار، وتطويع النُّصُوص، وليُّ أعناقها، خدمةً لمشاريعَ خاصة، منحازة عن هَمِّ الأمَّةِ ونَهْضَتِها.. مُؤْثِرَةً حُظُوظَ الهوى، وأطماع النَّفْس، واتِّبَاعِ الشَّهَوات، وكل ذلكَ يَقعُ بأشكَالٍ مختلفة، يجمعُهَا فَسَادُ التَّصوُّرَات!



الانطلاقة الكبرى

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [سورة المزمل: 1-5].

سورةُ المزَّمِّل من السُّورِ المكِّية التي تَوجَّهت بالخطابِ للنبي ﷺ.. نادتْه بالصفةِ التي كانَ عليها، في حال تَزَمُّلِه، وقد عَلَّقَ الأستاذ عبد الكريم الخطيب على الصفةِ التي خُوطِبَ بها النبي ﷺ، فقال رحمه الله: «ونداء النبي الكريم، بهذه الصفة التي كانَ عليها.. وهي المزَّمِّل.. هو غاية اللطف، والتكريم والإحسان من الله سبحانه وتعالى؛ حيث لا يكون هذا النوع من الخطاب إلا بين متحابين متصافيين، قد زالت حواجز الكلفة بينهما.. وهذا جائزٌ من الله سبحانه وتعالى، لأنه هو الملك للأمر كله، يدنى من يشاء

ويبعد من يشاء، ويخاطب أحبابه وأولياءه، كما يخاطب الحبيب حبيبه، والخليل خليله»[1].

كانَ الخطاب منَ الله لنبيه وحَبِيبه المُزَّمِّل مما رآه من عظمةٍ لم تستطعْ حينها الطَّاقة البشرية أن تحتملها، أتاه الخطابُ العلوي: أنْ دَعْ عنكَ التزمُّل، وارفع عنكَ كل شيء يحولُ بينكَ وبينَ تبليغِ الدَّعوة والرسالة، أنتَ أنتَ المعني بالخطاب، أنتَ المصطفى بينَ الخلائق، أنتَ المختارُ من العَالمين، دَعْ عَنْكَ أسبابَ الخَوْف، وانطلقْ لقفارٍ جرداء؛ لتبعثَ فيها الضِّياء والنُّور، من خلالِ مشروع الحياة؛ المتمثلِ بما تحمله من قِيَمٍ ومبادئ جاءت لتغييرِ البشريَّة.

قُمِ اللَّيل أيها المزَّمِّل، فقيامُ الليلِ هو المعين على تحمُّلِ المصائبِ والمصاعب، هو عنوانُ اليقَظَة، يقظة كاملة، واعية عاملة، حتى لكأنكَ في حالِ قيامٍ دائم، وإن كنتَ جالسًا.. ففي الليل تهدأ النفوس، ويصفو الفكر، ويضفي السكون أنواره على أرجاءِ الكون، ويستعدُّ القلب لتلقي البشريات الكبرى، والقيام سببٌ لراحته وتثبيته وسكونه، فقيامُ الليل وقراءة القرآن وترتيله، تعينكَ على الوقوفِ في وجه المحنِ والشَدَائِد، وبهما سَتَتمكَّن من تحمُّلِ ما سيُلقى عليك لتبليغه للدنيا صلاحًا للعبادِ والبلاد، فما سيُلقى عليكَ أيُّها النَّبي المزَّمِّل شديد، فاستعنْ عليه بالقيامِ

(1) «التفسير القرآني للقرآن» عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، (15/ 1249).



والقرآنِ والذكر، فذكرُ الله إِحياءٌ للقلب وإرواءٌ له من جفافِ الحياة!

أيُّها المزَّمِّل عندما تخوضُ معركةَ الوعي الكبرى؛ تَسَلَّح بالصبرِ والهجْرِ الجميل.. فهذه معركةٌ لا يدخلها إلا الصَّابرون، وميدانٌ لا يخلو من المشقَّةِ والعَنَت، وطريقٌ وعر تكتنفه العقبات والمدلهمات، فاستعن بالصَبْرِ وصَابِر!

خَاطَبَ الله نبيَّه في بدايةِ الدَّعوةِ الإسلامية، وقال له: «قُمْ».. «فَقَام. وظَلَّ قائمًا بعدها أكثر من عشرينَ عَامًا! لم يسترحْ. ولم يسكن. ولم يعِشْ لنفسه ولا لأهله. قامَ وظلَّ قائمًا على دعوةِ الله. يحملُ على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوءُ به. عبء الأمانةِ الكبرى في هذه الأرض. عبء البشريةِ كلها، وعبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى»[1].

جاءت سورة المزمِّل لتقولَ للداعي الأول: تذكَّر أنَّ من يقفونَ في وجه دعوتكَ، ومن يَسْعونَ لإطفاءِ النُّور الذي تحمله بينَ يديكَ للبشرية؛ ثمة حساب لهم، ووقفة عصيبة يومَ ترجفُ الأرض والجبال، وتصبحُ الجبال الشامخة كثيبًا مهيلًا كأن شيئًا لم يكن، فلا تبتئسْ أيُّها النَّبيُّ المجتبى لحملِ دعوةِ النُّور والخلاص. فأنتَ لَسْتَ بِدْعًا من الرُّسُل، فأخوكَ موسى أُرسِلَ إلى طاغيةِ

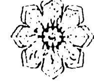
(1) «في ظلال القرآن» (6/ 3742).

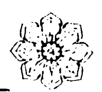


متكبر، إلى فرعون الذي أعرضَ عن دعوة الله، وحاول أن يقفَ في وجهها، فأخذناه غيرَ مأسوفٍ عليه.. وهذا جزاء كل من يقفُ في وجه حملة النُّور والضِّيَاء للبشرية، فلا تبتئسْ أيُّها النَّبي.

وعلى من يسعونَ لإفشالِ دعوتكَ، والصَّدِّ عنها، وتشويهها، والكذبِ عليها، عليهم أن يَتَذكَّروا اليوم الذي يُصْبِحُ الولدان فيه شَيْبًا من هَوْلِ ما يَرونَ وفظاعةِ ما يجدون.. هذه تذكرةٌ لمن كانَ له عقل.

مقام التّزكية





مدخل

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 28 – 29].

تَبَيَّنَ أنَّ هُنَاكَ علاقة وثيقة بين عُنصُرَي التَّكوين «الطِّين والرُّوح»، وتأثيرًا متبادلًا بينهما لا يمكنُ معها فَصْلُ أَحدهما عَنِ الآخر، فهما يُشَكِّلانِ وحدة ممتزجة، وأنَّ الإفراط أو التَّفريط في أَحدهما على حسابِ الآخر، لا يَتَّفِقُ معَ طبيعةِ الإِنسان، فالازدواجية ليست أمرًا طَارِئًا عليه، وإنَّما هي طبيعته التي خُلِقَ عليها، واستَحَقَّ بها الخلافة؛ لتحقيقِ التَّعادليَّةِ والاتزانِ بينهما.

وبناءً على ذلك؛ رَسَمَ المنهجُ القرآنيُّ طَرِيقًا لتَزكيةِ النَّفس، كلَّما حَادَت وانحرفت عن سُبُلِ الهداية، وهي، أيْ التَّزكية؛ سَبَبٌ

للتَّوازنِ العَظِيم الذي يجده الإِنسان في حَالِ النِّسيَانِ والغفلةِ والسُّقُوط، تأخذُ بيديه للتخلُّصِ من أدْرَانِ النَّفسِ وأوضَارِها.

وفي هذا المقام، أعني «مَقَام التَّزكية»، تَمَّ الحديث عن قيمةِ الصَّبْر العُظْمى التي تَعْصِمُ الإِنسانَ منَ السَّخَطِ والشَطَط، كَمَا تمَّ الحديثُ عن إِرَادَةِ الله المتمثلةِ بفتحِ بابِ التَّوبة للإِنسانِ المتّلَبِّس بالذُّنوبِ والخطايا؛ لتكونَ له نَهراً يُزيحُ ما عَلِقَ به من آثام.

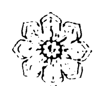
وبإِمكاني أن أقول: إنَّ قَضَايا «التَّزكيةِ الكبرى» بمفهومها الواسع، تمَّ التَّطَرُّقُ لها، من خلالِ الحديثِ عن الذِّكْرِ ومآلاته المدهشة، والتَّقوى، المَخْرَجُ الحَسَن من هُوَّةِ المصَاعِب، والصَّلاة؛ ذلكمُ البنيان المتين، وكذا الحديث عن سُكُونِ النَّفس وقناعتها بما حَبَاهَا الإِله وقَدَّر.

وتَطَرَّقْتُ أيضًا للحب، والألم، والاشتياقِ للحاقِ بركبِ النُّور، وكلها معانٍ وقضايا تعالجُ النَّفسَ وتُسْهم في تزكيتها وسُمُوِّها.

وهكذا، نجدُ أنَّ «القرآنَ سَمَا بالإِنسان فاعترفَ به كله، روحه وجسده، عقله وقلبه، إرادته ووجدانه، غرائزه الهابطة وأشواقه الصاعدة.. لم يضع في عنقه غلاً، ولا في يده قيداً، ولم يحرم عليه طيباً، ولم يغلق في وجهه باب خير»[1].

---

(1) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، ط/ 4، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1399هـ-1979م، ص:70.



وهنا يكمنُ التَّوازنُ المتقَن في مسيرِ الإِنسان، وتبرزُ نظرة الإسلام العظمى إليه بكلِّ معالمها. وقد عَبَّرَ القرآن عن هذه الحقيقة، في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 - 10].

قيمة الصّبر العظمى

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155].

امتحانٌ بشتّى المصَائِبِ والمصَاعِبِ للبشريَّةِ التي خُلِقَت في كَبَد، فثمَّتَ ابتلاء بخوفٍ من «المجهول» وخوفٍ من عَدُوٍّ داخليٍّ وخَارجيٍّ.. وجوعٍ خانقٍ بسببِ حصارٍ اقتصاديٍّ مُريعٍ؛ تخلِّفُه -عَادَةً- الحروب الطَّاحنة التي يَتَسَبَّبُ فيها عَدُوُّ الأمَّةِ «الدَّاخِليُّ» الذي يقودها للمَهَالكِ بسببِ مصالحه الضَيِّقَة التي يسعى لتحقيقها على حسابِ المجتمعِ المنكوب المُبْتَلى.. ونَقْصٍ مِنَ الأموالِ بسببِ الهلَعِ المخيفِ الذي يَنخرُ في المجتمعِ الخائفِ الجائعِ المتوجِّسِ من ويلاتِ الحروبِ القَذِرَة.. و(الأَنْفُس) في مثلِ هذه الظروف المخيفة تكونُ في حَالةِ نَقْصٍ دائم؛ بسببِ الآفاتِ التي تُهْلِكُ وتحصُدُ المجتمع، تُزْهَقُ ولا يُعْلَمُ كيفَ ولماذا



أُزهِقَتْ؟! حتى الأرضُ ينالها نَصِيبٌ من البَلاء؛ فتُمْحِلُ من كلِّ شيء، وتَنْقُصُ الثَّمَرات، ويَعمُّ الجوعُ، إضافةً لنقصِ الأموالِ والأنفسِ، وشيوعِ الخوف.. فيَعِيشُ المجتمعُ البَلاءَ في أوضحِ صُوَرِهِ الماثلة.

ولتفادي كل تلكَ المصائبِ والآفاتِ التي تُهَدِّدُ نسيجَ المجتمعِ، تبرزُ قيمةُ الصَّبر، ويُعلي ربُّنا من شَأْنِ الصَّابرينَ الذينَ يَلْجَؤونَ إليه في مثلِ هذه الظروف الاستثنائية التي يعيشُها المجتمع المبتلى المنكوب ابتداءً من بني قومه قبلَ غيرهم.

كَمَا أنَّ «الجزع في هذه المواطن هو الذي يثقِّل المصيبة، ويولِّد منها مصائب، فيضاعف معها البلاء، ويعظم الألم، ويطبق اليأس، ويغلق كل بابٍ للأملِ والرَّجاء!»[1].

وعن علاقةِ قَرْنِ الصَّبرِ بـ(الصَّلاة) في لحظَاتِ البَلاء الحرِجَة، وهبوط النَّكَبَات والمصَائب، يقولُ سَيِّدُ رحمه الله: «وحينَ يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد. ومن ثمَّ يقرن الصلاة إلى الصبر فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد. المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع. ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين.

---

(1) «التفسير القرآني للقرآن» (1/ 176).

إنه لابدَّ للإنسانِ الفاني الضعيف المحدود أن يتَّصِلَ بالقوَّةِ الكبرى، يستمدُّ منها العون حينَ يتجاوز الجهد قواه المحدودة. حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة. حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دَفْعِ الشَّهَوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطُّغيان والفَسَاد وهي عنيفة. حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئًا وقد أوشكَ المغيب، ولم ينل شيئًا وشمس العمر تميلُ للغروب. حينما يجد الشر نافشًا والخير ضاويًا، ولا شُعَاعَ في الأفقِ ولا مَعْلَمَ في الطَّرِيق.. »[1]. ولهذا، فإنَّ الإنسانَ مطالبٌ بالاحتماءِ بالصَّبر، فهو البوَّابةُ التي يلجُ منها إلى سَعَةِ الفَرَج، وأنوارِ الوصول.

(1) «في ظلال القرآن» (1/ 142-142).



ملامحُ الخلاص

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107].

ولقد مَسَّني البَلاءُ والضُّرُّ في لحظاتٍ حَرِجَة، فسقطتُ في هوَّةِ الهمومِ والأَحزان، واستطالَ بي الأَلم، وفي ليلةٍ مشهودة؛ سَمِعتُ الخطابَ الإلهي: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107]. فشعرتُ كأنِّي لأوَّلِ مرَّةٍ أَسمَعُهَا، أحسَسْتُ بوقْعِهَا في قلبي؛ ولقد رأيتُ فيها ملامحَ الخلاص، ومُنْتَهى اليقين.

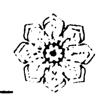
فإذا أُصبتَ بـ البَلاءِ، والمِحَن، وَرَكِبَتْكَ الهمومُ والأحزان،

واستطَالَ بكَ ليلُ الظُّلمِ والتَّهميش، ولفحتكَ رِياحٌ لاهبة، أحرقتِ الرُّوحَ والفؤاد؛ فلا كاشفَ لكلِّ ذلكَ إلا بأمرِ الإله!

و«الضرُّ» هنا، لفظٌ شاملٌ لكلِّ الابتلاءاتِ التي تمسُّك، فلا ملجأَ لكَ للخلاص؛ إلا طريق الله رب العالمين! فإذا أرادَ لكَ خيرًا وفضلًا؛ فلا رَادَّ لفضله، ولا مُمْسِكَ لعطائه، ولو تَمَالَأَ كلُّ من في الأرضِ على الوقوفِ في منْعِ الخيرِ المقدورِ لك، لما استطاعوا إيقافَ ما حقه الوقوعُ بأمرِ الله! وأنَّى لهمْ ذلك؟!

ولَمَّا كانَ الأمرُ منه سبحانه، كانَ وجوبًا على الإنسانِ أن يتلمَّسَ الرَّحماتَ والهبات، لـ يحوزَ الفضلَ العظيم، وأن يُسلِّمَ بالأمرِ لمنْ له مقاليدُ الحُكمِ والقضاءِ والأَمر، المتعالي، من يُعطي السَّائلَ إذا وَقَفَ مطرقًا بالباب، ويعفو عنِ التَّائه الذي يبحثُ عن نفسه الشاردة، ويُصيب برحمته وفضله من شَاءَ من عباده!

وفي لحظةٍ ما، إذا شعرتَ أنَّ البابَ أُغلقَ في وجهك، وأَوْصَدَ الخَلْقُ كل منفذٍ للنُّور إليك؛ فتذكَّر أنَّ الإله قد فتحَ لكَ أبوابًا كبرى لا حدَّ لها، وإذا مُنعتَ شيئًا، فقد حُبيتَ خيرًا في رَحِمِ الغَيْبِ يتشكَّل؛ لا تعلمُ حدَّه ومداه. فاطلبِ الفَضْلَ وتعرَّض للعَطَايا والمنح. ولا تبتئسْ!



إرادة اللّه خيرٌ لكم

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: 27].

في هذا النَّصِّ القرآني تَبْرُزُ لَنَا إِرَادَتَان: «إِرَادَةٌ إلهيَّة» قُدسِيَّة، تمُدُّ يد الحياة للإنسان؛ ليَلِجَ (بَابَ التَّوبة) الذي أَرَادَه الله للخَلْقِ مُغْتَسَلًا بَارِدًا وشرابًا! وثَمَّةَ «إِرَادةٌ بشَرِيَّة» محضة، جُبِلتْ على فكرةِ المَيلانِ والانحراف، والأخذ بأيدينا بعيدًا بعيدًا عنِ البابِ الذي أُمِرْنَا أن نقِفَ على عَتَباتِه؛ نبكي الذُّنوبَ والخطايا، ونُعلِنُ التَّوبة التي مُنِحتْ لنا!

وقد وصَفَتِ الآية «الميلان والانحراف» الذي يُرَادُ لَنَا مِن قِبَلِ مَنْ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ بـ «العَظِيم»، ولا يَتَأَتَّى ذلكَ إلا بجُهْدٍ عظيم مِنْ قِبَلِهم؛ لتحقيقِ إِرَادَتهم في إِنفاذِ ما يعملونَ لأجله!

وَمَنْ يتَّبِعونَ الشَّهَوات في هذا النَّصِّ الإِلهي دائرةٌ واسعةٌ، يَدخُلُ فيها كلُّ مَنْ وَقَفَ حَائلًا ضدَّ إرادة الله التي ارتضاها لعباده، وقد يكون هذا الحائل هو نَفْسَكَ التي بينَ جَنبيك!

وفي الآيةِ التي تَليها قَرَّرَ الله حقيقةً عجيبةً، أفادت أنَّ الإرادةَ الإلهية للإنسانِ بالتَّوبةِ عليه، وفَتْحِ باب التَّوبة في وجهِ الخطيئة هو في حقيقته «تخفيفٌ» يَتَخَفَّفُ به الإنسان من أثْقالِ الشَّهواتِ واللذَّاتِ التي تُثْقِلُ كاهِلَه، وتُصَيِّرُه عَبْدًا لها!

وكَأَنَّ هذا النَّص القرآني يَفتَح أَمَامَنا العَديدَ من المعاني؛ كـ «الحريَّةِ الرُّوحية» التي يَشعُرُ بها الواقِفُ أَمَامَ إِرَادَةِ الله، وَهَوْل الأثقال والقيود التي يَرزَحُ تحتها عَبْدُ الشَّهَوات، وإن اعتَقَدَ في غفلةٍ منه أنه يعيشُ حُرًّا بلا قَيْدٍ، يَقِفُ حَاجِزًا أَمَامَ سَيْلِ الشَّهَواتِ والمَيَلان!

ثمَّ قَرَّرَت الآية «حَقِيقةً إنسانيةً» تَتَعَلَّقُ بذاتِ الإنسان: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: 28]! وقد وَرَدَ هذا الضَّعف في سِيَاقِ الانصياعِ للإِرَادَةِ البَشَرِيَّةِ التي تَجْرُفُ الإنسانَ نحوَها، فيَضعُفُ عنِ المقاومة، ويَستَسْلِمُ لدُعَاة الشَّهَوات، ثم يُمْعِنُ في الغَرَق، حتى تأتي اللحظة الفَارقة التي يَتَذَكَّرُ فيها فيُبصِر: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 201]، يَرونَ الباب لم يُغلَقْ بَعْدُ، فينتحِبُونَ على عَتبَاته، يطلبونَ الصَّفْحَ والغُفْرانَ والرِّضَا والحرِّية، ويَنشُدون التَحَلُّلَ مِن أثْقالِ الذُّنُوبِ والخطايا والشَّهَوات: ﴿وَٱللَّهُ



يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة النساء: 27]. ثم تذكَّر إن نجَّاك الله من شَرَكِ أهلِ الشَّهوات، وعافاكَ من الذُّنوب، وطهَّركَ من التلوثِ بها، وحماكَ من الوقوعِ في قعرها.. وزكَّى قلبكَ وروحك؛ فذلكَ من فضلِ الله عليك، وتلكَ نعمة تستحقُّ الحمد والشُّكر والثَّناء على من عصمكَ وهداك.

وإياكَ أن تنظرَ إلى غيركَ ممن تلبَّسَ بالأخطاء، وابتعدَ عن الطَّريق؛ إياكَ أن تنظرَ إليه نظرةَ استعلاء، وتجعل من نفسكَ في مكانٍ عالٍ ينظرُ بدونيةٍ إلى الآخرين. وكأنكَ شوكة الميزان!

تذكرَّ: «ولولا فضل الله عليكم»، لقد شملكَ فضل الله، وضمتكَ رعايته؛ فلا تغتر، ولا تركن إلى حولكَ وقوتك، وإنما إلى الفضلِ الإلهي العظيم الذي نزلَ بقلبك، فصرفكَ عن مواطنِ الإثمِ والهوى!

وكل من طلبَ الطُّهر والتَّزكية، وقصدَ الطَّريق؛ وجده قبالة وجهه، ومن أفضى بهمِّه الذي أثقله إلى الله، كفاه،

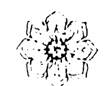
ومن طرقَ الباب؛ وجده مُشرَعًا لمن يقفونَ على العتبات، يسمعُ الله منكم الدُّعاء، وأنين الدَّمع، وطلب العودة.. العودة إلى رحابه العظيم، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

التّقوى التي تُورثُ الفرقان

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29].

حينَ تتحقَّقُ التقوى في القلوب يتَّضحُ الطَّريق، وتظهرُ الأمورُ على حقيقتها جَليَّة، وتنجلي الهمومُ والكُرَب، ويفتحُ الله على العَبْدِ فُتُوْحًا تَليقُ بعبوديته وتقواه التي تَسَبَّبَت في الفُرقَانِ الذي مَنَّ الله به عليه.. فبقدرِ ما تحمله في قلبكَ من تقوى بقدرِ ما تُوهَب من «الفُرْقَان» الذي يُبصِّرُكَ ويعينكَ على مَصَائِبِ الدُّنيا ومَصَاعِبها..

ولّما كانَ نبيُّنَا إِمامَ المتَّقِين -بأبي هو وأمي- جَعَلَ الله له فُرْقَانًا أنجاه الله بسببه من المكيدةِ التي كادتْه الجاهلية بها.. ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ



بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ [سورة الأنفال: 30]...

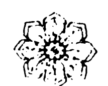
فناسبَ أن تأتي هذه الآية بعد الآية السَّابقة مثالًا على التَّقوى التي تُوْرِثُ الفُرْقَان.

المَخْرَجُ الحَسَن

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [سورة الطلاق: 2].

فعندما نتأمَّلُ اللفظةَ القرآنية (مَخرجًا).. نشعرُ بإحساسٍ غريبٍ، لكأنَّنَا كنَّا في كهفٍ مُظلم لا أمَلَ للخروجِ منه، فيأتي المَخْرَجُ من الله للنَّفاذِ إلى ساحته.. كأنَّنَا نقبعُ في لحدٍ ضَيِّق، ونوشكُ على الهلاك، فتأتي «مخرجًا» لتُزيحَ أكوام الظَّلام والضيق والألم الذي سَرْبَلَ حياتنا..

وإنَّ الإنسانَ إذا وَقَعَ في مُعاناةٍ وضيق، وهو في مواجهةِ المواقفِ المؤلمة، التي تتغيرُ فيها حياته.. فإذا اتقى الله، ولَزِمَ حدوده، اختارَ له الله سبحانه وتعالى الطريق المستقيم، الذي يتبدَّل فيه حاله من ضيقٍ إلى سَعَة، ومن هَمٍّ إلى فَرَج، وتقوى الله في هذا الأمر، كفيلة بأن تبلغ به مَرْفَأ الأَمْنِ والسَّلام.



إنَّ المَخرَجَ الذي يأتي من الله ليسَ كبقيةِ المخارج؛ إنه ثمرةُ التَّقْوى، والضوء الذي يُنير بقعةَ الظَّلام في طريقنا، فالمَخْرَجُ منَ الله هبة يهبها لمن يشاء من عباده.. فَسَلوا الله المَخْرَجَ والفَرَج، والتزموا التَّقوى، فمن لم تُعِزه التَّقوى فلا عِزَّ له.

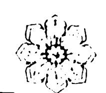
البنيانُ الآمن والبابُ المتين!

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [سورة مريم: 59].

فبعدَ أن ذَكَرَ الله كَوْكَبَةَ النُّبُوَّة، ومن سَارَ على طريقتهم وهَدْيِهِم، ذَكَرَ الله مَن أتى بعدهم، وبَيَّنَ بعضَ صفاتهم، وَخَصَّ «إِضَاعَةَ الصَّلاة» بوصفها صفةً أُولى، «واتِّباعِ الشَّهَوَاتِ» بوصفها صفةً ثانية، وقد جاءتْ نتيجةً لإضاعةِ الصَّلاةِ والتَّفْرِيطِ فيها.

وإنَّ المتَأَمِّلَ في هذه الآية القرآنية يتضحُ له أنَّ الخَلْفَ الذي جَاءَ بعدَ مسيرةِ النُّبوَّة أضَاعَ الصَّلاة؛ أي: فَرَّطَ فيها وأهمَلها، ولم يُقِمْهَا على وجهها، وهي البُنيانُ الآمِنُ الذي يَلوذُ به الإنسان من أعاصيرِ الفتنِ والشَّهواتِ والانحرافات.

ولهذا، جَاءَ اتِّباعُ الشَّهواتِ مباشرةً بعدَ إضاعةِ الصلاة؛ لأنَّ



البابَ كُسِر، وَوَجَدَ الإنسانُ نفسَه بلا موعدٍ معَ السَّماء، انقطعَ حبلُ الرُّشدِ والهداية، الحبلُ النَّاظِمُ لحياةِ الإنسان، ميزانُ الاتزانِ بينَ رغائبِ الدُّنيا ومتطلباتِ الرُّوح، فإذا ما ضَاعَ كلُّ ذلك، طَاشَ وتاه وغَرِقَ، واتَّبعَ الشهوات، وكفى بهذا الاتباعِ انحدارًا وسُفُولًا، أوداه إلى (الغيِّ) يومَ القيامةِ والحسَاب!

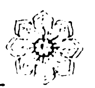
ومما يؤكدُ أنَّ الصَّلاةَ «بَابٌ متين»، يَمْنَعُ دخولَ الظَّلامِ والتيه على قلبِ الإنسان، كما أنَّها الحامي لقلعةِ القِيَمْ، وهي علامةُ الاستقرارِ والثَّبَات، قوله جَلَّ في عُلاه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: 45]، تَمنعُ صاحبها من الوقوعِ في الانحرافات، والانجرارِ وراءَ الشهواتِ والملذَّات؛ لِما تُحدِثه من مناعةٍ في القلبِ والعقل، تدفعُ نحو العُلُو، وتُنَفِّرُ من الهبوطِ والانحداراتِ والتَّلبُّسِ بالذنوبِ والمعاصي!!

وفي نفسِ سياقِ الآية: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: 45]. وذكرُ الله لفظٌ شَامِل، تدخلُ الصَّلاة فيه ضِمْنًا، فهي أَكْبَرُ من كلِّ شيء، وأعلى من كلِّ شيء، وهذا المفهومُ الذي يستقرُّ في نفسِ القائمِ بصلاته والمحافظِ عليها، يساعده على التَّرفُعِ عن الشَّهواتِ والولوغِ فيها!!

إذن، فمجيءُ اتِّباعِ الشَّهَوات بعدَ إضاعةِ الصَّلاة، لِحَكْمَةٌ ظاهرة، ونتيجةٌ مُشَاهَدَة، وواقعٌ لا مَفَرَّ للإنسان منه، وهو أشبه بمقدمةٍ ونتيجةٍ، مَن أَضَاعَ الصَّلاة = اتَّبَعَ الشَّهَواتِ وغَرِقَ

فيها، وكَفَى بذلكَ ضَيَاعًا وخذلانًا. وفي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77]، أَمَرَ الحقُّ سبحانه بالرُّكوعِ والسُّجُود، ثمَّ أَمَرَ بالعِبَادة، وَخَتَمَ الأمْرَ بـ فعْلِ الخيْر. والأمْرُ الأول يدخلُ في عمومِ الأَمْرِ الثَّاني، والأَمرُ بالعِبَادةِ داخلٌ في عمومِ فعل الخيْر. وما خَصَّ الرُّكوعَ والسُّجُودَ بـ الذِّكْر؛ إلا لمزيدِ اختصاصٍ، وعظيمِ اهتمام.

ومن أجَلِّ الحواجِزِ المنيعة التي تُحدثها الصَّلاة في نفسِ الإنسان، أنوار الأوقاتِ في اليومِ والليلة، كونها جاءت بأمرٍ إلهي، فهي ممتلئة بالحكمةِ المدهشة، إنها أنوارٌ تُزيحُ الظَّلام الذي يَتَلَبَّسُ به الإِنسان في أوقاتِ الفَرَاغ، إنها النَّهر الذي يَغسِلُ الأَدرَانَ، فإذا ما وقَعَ الإنسانُ في شهوةٍ وضيعة، وانساقَ وراءَ زَلَّةٍ مظلمة، جَاءَ وقتُ الصَّلاةِ مُعلِنًا أنوارَ الفَلاحِ والصَّفَاء، فَاتحًا بَابَ التَّوبَةِ العظيم، مُذكِّرًا بحقيقةِ الحَبْلِ الموصول بينَ السَّماءِ والأرض، وقد عبَّرَ النَّصُّ القرآنيُّ عن حقيقةِ هذا الأمر بقوله تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة هود: 114]، تُذهِبُ أنوارُ الصَّلاة ظلامَ الشَّهوةِ والمعصية، ذلكَ ذكرى لكلِّ إنسانٍ؛ كَيْ لا يكونَ من الخَلْفِ الذينَ أَضَاعوا الصَّلاة؛ لأنهم سيقعونَ في هُوَّةِ الشهواتِ الموصلةِ إلى الغَيِّ والجحيم.



سبيلُ السّكونِ والرِّضا

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [سورة طه: 131].

منَ الآياتِ القرآنيةِ الخالدة؛ التي تشعرني بسكُونٍ مُدْهِش، هذه الآية التي تُخاطبُ «الإنسان»، وتُساعِدُه للانتصارِ على جموحِ النَّفْسِ والهوى؛ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[1]، أي: لا تُكْثِرِ الالتفات، واقصِر النَّظَرَ عن «مُتَعِ الحياةِ الدُّنيا» التي لم تُرزَقْ بها، فما حُرمتَ منه «ابتلاء» لكَ لتصبِر، وابتلاء لمن حَبَاه الله «العطاء» ليشكُرْ، والقيام بها كما أرادَ المُنْعِم!!

(1) والعيْن لا تمتد، إنما يمتدُّ البصر أي يتوجه. ولكنَّ التعبير التصويري يرسمُ صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع. وهي صورة طريفة حين يتصورها المتخيل. ينظر: «في ظلال القرآن» (4/ 2154).

وإنَّ المتأملَ في تثقيلِ «الدال» و«النون»، في كلمةِ «لا تَمُدَّنَّ»، يشعرُ بمدى التشديدِ الذي تحمله هذه المفردةُ القرآنية، التي جاءت تحملُ «النهيَ» الصريح؛ للعيشِ في سلامٍ دائم، والابتعادِ بالنَّفْسِ عن المشتتاتِ، واللهثِ وراءَ السَّرَاب المُفضي للشَّقَاء؛ لأنَّ قِصَرَ «النَّظَر» سبيلٌ للسُّكُون، ومحراب الرِّضَا الفسيح! والالتفات لما عند الآخر بوابةُ الشَّقَاءِ الكُبْرى!

إنَّ (لا) في هذه الآيةِ مفتاحٌ للحياةِ الطيِّبة، والاطمئنانِ المستديم، إنها تهبكَ حَصَانة من لهيبِ المُتَعِ الممتنعة؛ تجعلُكَ تحيا سَليمَ الصدر، مخمومَ القلب، وتأخُذُ بيديكَ للمتاعِ الإلهيِّ الخالد!

وإذا تَطَلَّعَ الإنسان في لحظةِ ضعفٍ إلى شيءٍ بعيدٍ عن مرأى العين، فليروِّض نفسه على الإيمانِ بأنَّ كل بعيد يدنو بالكفاحِ والصبرِ والاعتماد على الله.. وليُشعِر قلبه دائمًا بأنَّ رضا الله هو غايةِ الحياة؛ مهما احتملَ في سبيلِ ذلكَ منَ آلام.

في سورتي (الحِجْرِ) و(طه)، جاءَ النِّداء العُلوي: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، وفي سياقِ كلِّ آية، نَبَّه القرآنُ الكريم إلى العَطاءِ الإلهي الذي يَسْتحِقُّ استطالةَ النَّظر والإمعان، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [سورة الحجر: 87]. وأَكْرِمْ به من عَطَاء لا تُوزَن الدنيا كلها وأهلها، بكلمةٍ من كلماته، وأعْظِمْ بها من عَطيَّة!



«وهذه اللفتة كافية للموازنة بينَ الحقِّ الكبير والعطاءِ العظيم، والمتاعِ الصغير الذي يتألقُ بالبريقِ وهو ضئيل»[1].

وفي سورةِ طه؛ قَابَلَ النَّهي عن مَدِّ العَينِ إلى ما عندَ الآخر، أمرٌ قرآني، يدعو للإصلاحِ الداخلي، فبعدَ قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، قَالَ جَلَّ وعَلا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [سورة طه: 132]، تخلَّصْ من «آفةِ النَّظَر» إلى مُتَعِ الآخرين، ولا تحفَلْ بذلكَ المتَاع، ولا تلقِ له نظرة اهتمام، أو نظرة استجمام، أو نظرة تمَنٍّ واشتهاء.

وعِشْ قانعًا بما حَبَاكَ الله. والتفتْ بكليَّتِكَ إلى معركةِ الإصلاحِ والدعوة، وأصلحِ البيئة التي تعيشُ فيها ومعها، واصطَبِرْ على ذلك، ولا تخشَ من الرِّزق، فالإله هو الرزَّاق ذو القوةِ المتين. وتذكَّر أيها الإنسان، أنَّ العاقبةَ للتقوى، ولا تتحقَّقُ التقوى؛ إلا بامتثالِ الخطابِ القرآني، المتمثل في النهْيِ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ والأمر: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾!

ولَمَّا كانَ القرآنُ الكريمُ منهج حياةٍ للإنسان، وسبيلًا واضحًا للوصولِ إلى طريقِ الله ربِّ العالمين، جاءت هذه الآية تختزلُ في مضمونها معانيَ كثيفة، تعالجُ النَّفسَ الإنسانيةَ التي تهفو للتطلعِ إلى متاعِ الحياةِ الدنيا، والالتصاقِ بملذاتها، والاشتهاءِ لكلِّ ما

(1) «في ظلال القرآن» (4/ 2154).

حُبِّبَ فيها.. أتت هذه الآية لتبني جدارًا يحولُ بينَ النَّفسِ وما تهواه، إنها حَائطُ صَدٍّ مباركٌ، تجعلُ الإنسانَ يعيدُ النَّظرَ في تقويمه للمتاعِ الدنيويِّ الزائلِ.. وتُحيي فيه قيمة الاستعلاء عنِ اللذائذِ والمُتَعِ التي مُنحتْ لغيره، تجعلُ من الإنسان شامخًا برأسه، لا ينظرُ إلا للسماء، ويأبى على نفسه إطالةَ النظر هنا وهناك، يشتهي ما عندَ الآخر، ويقفُ على البابِ مُتحسِّرًا على ما فاته من مَتَاعِ الغرور!

إنَّ العطاءَ الذي يُمنحُ للإنسانِ في الدنيا، هو في حقيقته محضُ ابتلاء، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك: 2]، فإن تلقَّاه بحُسْنِ التصرُّف، وأدى الحقَّ الذي عليه، وشَكَرَ المُنْعِمَ المتفضِّل، فقد جَازَ صراطَ الفتنةِ والابتلاء، وأعطيَ في الدنيا حسنةً وفي الآخرة.. وإنِ استغنى عن المُنْعِمِ الحقيقي، ورأى أنَّ الفَضْلَ والهبات التي أُوتيها، يعودُ فضلها لقوَّته وعلمه وذكائه، فقد وقَعَ في الطغيان، وسَلَكَ سبيلَ (قارون)، الذي تبجَّحَ قائلًا: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [سورة القصص: 78].

وهذا الصنف الذي غَفَلَ عن حقيقةِ العطاءِ الواسع، وغَرِقَ في المتع، وتاه في نشوةِ الغرور والنِّسيان، وباتتِ الحياة الدنيا هي مبلغَ الهمِّ لديه، وهي المآل، ولها يعيشُ ويحيا.. هذا الصنف؛ هو الذي حَذَّر القرآن الكريم من مدِّ النظرِ إليه، لأنها حياة في حقيقتها



«فتنةٌ وابتلاء»، والمعصومُ الموفق، من تَدَثَّرَ بالصبرِ والرضا، لتكونَ له العاقبة الحسنى، ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة القصص: 83].

وهذه الآية الكريمة لا يُفْهَمُ منها الانكفاء على النَّفس، والتوقف عن الضربِ في الأرضِ والسَيْرِ في رحابها، وترك سبيل الأسباب والأخذ بها، والعمل بسنَّةِ التدافع، والقيامِ على مهمة إِعمارِ الأرضِ ونهضتها.. إنها لا تدعو للزُّهْدِ السَّلبي القائمِ على التهاوت والذُّبُول، والذي يغفل عن حقيقةِ أنَّ الدُّنيا «مزرعة الآخرة».. والمحَطَّة التي يجتازها الإنسان للوصولِ إلى المحطَّةِ النهائية، التي يُكْرَمُ فيها المرء على صَبره وجهاده في دروبِ الحياة، وإعماله لسُنَّةِ التَّدَافُع، ورضاه الذي انسَكَبَ في قلبه؛ فأورثَه الرِّضْوانَ والخلود!

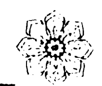
عِلّةُ الاختصاص

قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [سورة الصافات: 142 - 144].

أُلقيَ بنبيٍّ الله يونس عليه السلام في البحر، وأُلْقِيَ معه أخرونَ كَما يتَّضحُ من سياقِ الآيات، كونَ السفينة قد امتلأت، واشتدَّ حِملها، وكان لابدَّ من أن يخفَّف عنها بإلقاءِ بعضِ الرُّكاب، وكان نبيُّ الله يونس ممن أُلقِي به أيضًا!

نحنُ لا نعلمُ كم عدد الذينَ أُلقِيَ بهم، فمنهم من التقَمَتْه الحيتان، ومنهم من غرقَ وطفت جثته على الشاطئ، ومنهم من نجا..!

ومع كلِّ هذا العَدَد، إلا أنَّ القرآن لم يذكر أحدًا منهم، بل



أهْمَلَ ذكرهم، ولم يلتفت إلا لواحدٍ ممن ألقيَ به، وهو نبيُّ الله يونس ﷺ، وعندما ذكرَ تعليل الاختصاص والاجتباء، وسبب النَّجاة، لم يذكر كونه نبيًّا من الأنبياء، أو سليل بيتِ النُّبوة، أو لشرفٍ شخصيٍّ رفيعٍ استدعى أن تُخلَّدَ ذكراه أَبَدَ الدَّهر.. كانَ التَّعليل، أنَّه كانَ من المسبحين!

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أيْ: لأصبحَ بَطن الحوت قبرًا له.

إذن، كانَ التَّسبيح هو الشَّرَفُ الرَّفيع الذي تَسَبَّبَ في نجاةِ يونس ﷺ، وهو عَمَلٌ ملائكيٌّ، ولهذا قالتِ الملائكة للإله يومَ خلق آدم، ونصبه خليفة في الأرض: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: 30]، كوظيفةٍ عُظْمَى استحقَّت أن تذكرها الملائكةُ أمامَ الله.

والتسبيح يُرادُ به ذكر الله عمومًا، وتشتركُ فيه كل أدواتِ الحوَاس وآلاتِ المعرفة عندَ الإنسان، فذكْرُ الله باللسانِ تسبيح، والنَّظر في كتابِ الوجود، والتَّأمُّل في عظمته تسبيح، والنَّظَر في كتابِ الخَلْقِ تسبيح، والنَّظَر فيما خَطَّته يدُ البَشَرِ من معانٍ سامية تُهذِّب القلب، وتُنَمِّي الفِكْرَ، وتقرِّبُ من الإله؛ كلُّها «صورةٌ» من صُوَرِ التَّسبيح لله تَعَالى..! وكلُّ عَمَلٍ يُرَادُ به الإله دونَ سواه تسبيح؛ لأنَّ الغاية فيه هو «الله»!

ثم تأمَّل معي:

إنَّ عبادةَ التَّسبيح «ذكر الله» من العباداتِ اليسيرة، ومعَ ذلكَ يغفلُ عنها كثيرٌ من الخلق، ومن وُفِّقَ لذكرِ الله كثيرًا، فاعلم، أنَّ الله أرادَ أن يكثر من ذكره في الملأ الأعلى، وهذه مِنَّةٌ لا يعلمُ جلالها إلا من تعلَّقَت قلوبهم به.. !

فهل فكَّرتَ، ماذا يعني أن يُخصَّ ذكركَ من بينِ الخلائق؟!

فمع كونها يسيرة إلا أنَّ الغفلة فيها واسعة، وهذا يلفتُ النَّظر إلى التَّوفيق الذي يسبغه الله على خلقه الذَّاكرينَ الله كثيرًا!

والذي يُفهمُ من الآياتِ التي ذكرت خبرَ يونس ﷺ:

أنَّ التسبيحَ وذِكْر الله أحد أسباب النَّجَاة من المِحَنِ، والآلام، والمصائبِ التي تعترضُ طريقَ الإنسان في سَيْره.. فالموفَّقُ من وُفِّقَ بأخذِ أسبابِ النَّجاةِ في سَفَره الذي لا يعلمُ بانتهائه إلا الله وحده.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [سورة لقمان: 34]..



الألم الصّادق

قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92].

هذه دمُوعٌ زَكِيَّة، استحقَّتْ أن تُسجَّلَ في السِّجلِّ الخالدِ لأقوامٍ ضُعَفَاءَ لا يعرفهمُ الكَثير..! لحظاتٌ مؤلمةٌ عاشَها أصحابها، جَعَلَهَا الله مثالًا خَالِدًا للألمِ الصَّادِق، وصِدْقِ التَّوجُّه، وبَذْلِ النَّفْس.

استوقَفَتْنِي لفظةُ ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾؛ فلها وَقْعٌ خَاصٌ لدى المُتَلَقِّي لهذه الحادثة؛ فهي من «الفَيْضِ» و«الإفَاضةِ» و«الفَيَضَان»، وجميعها تأتي بمعنى الامتلاءِ والسَّيَلان.

إذًا، فقد سَالَ الدَّمْعُ منهم بغَزَارَةٍ حَدَّ الامتلاء.. ويُقالُ: «فَاضَ صدره بسِرِّه»، أيْ: لم يُطِقْ كتمه فَبَاحَ به.. فالآية رَسَمَت

تلكَ الصُّورة المُتخمة بالصِّدْق، والتي تَنُمُّ عن حُزْنٍ عَميقٍ هائلٍ دَلَّ عليه فَيْضُ الدَّمْع، لفَوَاتِ شَرَفِ الرَّحيلِ مع المصطفى ﷺ، ونَيْلِ فَضْلِ الصُحْبةِ والجهاد، مما تَسَبَّبَ في انسكابِ وفَيَضَانِ الدَّمْعِ بحرارةٍ وأَسَى؛ لعجزهم عن كَتْمِ أَلَمِ الفراقِ والتخلُّفِ عنِ الرَّكْبِ المبَارَك.. فكَانَ بَوْحُ الدَّمْعِ تخفيفًا لوطْأَةِ الألمِ والحرمَانِ الذي لحِقَ بهم.

هؤلاء القومُ الذينَ حزنوا وتَوَلَّوا، ما كانوا يُدركونَ يومها، أو يعلمونَ أنَّ الملك يُسجِّلُ -في تلكَ اللحظة- خَبَرَهُم؛ ليكونوا قدوةً، وصورةً مشرقة لأمَّةٍ نَائِمَةٍ تَملكُ القُدْرَةَ والأسباب، وما تُحمَلُ عليه، ولا تسعى للبَذْلِ والتَّغييرِ والانطلاق، وللمتخاذلينَ والمتخلفينَ عن الرَّكْبِ المباركِ الدَّائم، ممن لا يَسِيلُ الدَّمْعُ ولا يَفيضُ الحزن لديهم إن فَاتَهُمُ الخيرُ والفَلاح..!

يقول سيِّد رحمه الله:

«بمثلِ هذه الرُّوح انتَصَرَ الإِسلام، وبمثلِ هذه الرُّوح عَزَّتْ كَلمَتُه، فلننظُر أَينَ نحنُ من هَؤلاء، ولننظُر أينَ روحنا من تلكَ العُصْبَة. ثمَّ لنطلب النَّصر والعِزَّة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر..»[1].

---

(1) «في ظلال القرآن» (3/ 1686).



خلود الكلمة

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة: 27].

في الحوارِ القرآنيِّ الشَّهيرِ بَينَ قَابيل وهابيل، يقولُ تَعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾، فيبدأ الحوار على لسانِ قابيل:

- ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

- جَاءَ الرَّدُّ على لِسَانِ هَابيل:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 27-28].

ثمَّ يقولُ، مُوَضِّحًا منهجه في الحياة:

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: 28].

في الحوارِ بينَ قَابيل وهَابيل؛ نُقِلَتْ إِلينا كلِمَاتُ الشَّهِيدِ المغدور، المُرَصَّعَةِ بأنوارِ الحكمة، بينما تجاهَلَ النَّصُّ القُرآنيُّ تمَامًا كلماتِ القاتلِ الأثيم، استُشْهِدَ هابيل وَظَلَّت ذِكْرَاه العَطِرَة رَمْزًا لِلسَّلامِ والتَّسَامُح، ونَظَافة اليَد من كلِّ قَطرةِ دَم، وباتت كلماته الخالدة التي سَجَّلها القرآن مثالًا يُحتذى به في الكَفِّ عنِ الوُلُوغِ في الدَّمِ الحَرَام، والتَعَفُّفِ عن ذلك.. بينما لم يُنقَل لنا سوى كلمَةٍ مظلِمةٍ قَاها القَاتِلُ المضَرَّج بالخذلان، ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾!!

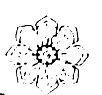
وجَرَت بذلكَ سُنَّة التَّاريخ، فقد نَقَلَ إلينا كلماتِ الشُّهَدَاء الذينَ ضَحَّوا بأرواحهم، بينما اندَثَرَ أعداؤهم، وخَمَدَ ذكرهم.. وبقيتْ وحدها كلماتُ الشُّهَدَاءِ كالنُّورِ الخالد الذي تَسْتَضِيءُ به الأمم، كلَّما اجتاحها نَيْرُ الظَّلامِ والظُّلم.

وقد تَرجَمَ سَيِّد رحمه الله هذا التَّجَلي القُرآني في خلودِ كلماتِ الشُّهَدَاء، بقوله البديع:

«إنَّ أفكارنا وكلماتنا تَظَلُّ عَرَائسَ منَ الشَّمْع، حتى إذا مِتْنَا في سَبِيلها دَبَّتْ فيها الرُّوح، وكُتِبَتْ لها الحياة»[1].

---

(1) ينظر: «دراسات إسلامية» سيِّد قطب، ط11، دار الشروق، القاهرة، ص: 139.



حقيقة المفاهيم الكبرى

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة المائدة: 27-28].

عندما نتأمَّلُ سياقَ الحوارِ الذي دَارَ بينَ الأَخَوَينِ الشقيقين، يتَّضِحُ أنَّ فكرةَ الحياة والموت والعَودةِ إلى الله والخوف منه.. كانت حَاضرةً في ذهنِ هَابيل..، بمعنى: أنَّ الألفاظَ والمفاهيم التي طَرَحَها عندَ سَماعِه الوعيد بقتله من قِبَلِ أخيه تَدُلُّ أنه تَلَقَّى مَعَانِيَ دينيةً عاليةً؛ وإلا فكيفَ عَلِمَ «هابيل» أنَّ الله إنما يَتَقَبَّلُ منَ المتَّقِين؟! وما ذاك إلّا لأنَّ مفهومَ «التَّقوى» كانَ حاضِرًا لديه في تلكَ اللحظةِ التي هُدِّدَ فيها بالموت!

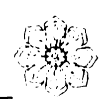
ثمَّ تجدُ مَعَانِيَ عَمِيقَةً في قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾. كانت فكرةُ القتلِ البشعة حاضرةً وبقُوَّة في ذهنِ هابيل.

ولهذا، نَزَّه نفْسَه من أن يَقَعَ في هذ الجُرمِ العظيم؛ وعَلَّلَ ذلكَ بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. لقد زُرِعَت فيه مَعَانِي الخوف من الله، والكفِّ عن العدوان، والسَيْرِ في سلكِ المتَّقينَ الوجلين!

وفي ذاتِ السِّياق؛ يَشتَدُّ الحوار قوةً في إبرازِ الحقائق، وعُمْقًا وإِدرَاكًا لمفاهيم إِسلاميَّة إِنسانية عالية.. فيصوِّرُ النَّصُّ القرآني الحوار بينهما، بقوله لأخيه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾، أي: بإثمِ قَتْلِكَ لي ظُلْمًا وعُدْوَانًا وحَسَدًا، ﴿وَإِثۡمِكَ﴾، أي: لا أرجعُ بإثمِ قتلكَ؛ فأقع في الظُّلْمِ والطُّغْيانِ الذي أخشى منه وأُحَاذِر!

وهذا فَهْمٌ عَمِيقٌ، وتحرُّزٌ منَ الوُقُوعِ في الجريمة، وتَعَفُّفٌ عن الظُّلم، وقد أبى على نفسه من أن تَلْقَى الله بـ «سَفْكِ دَمٍ حَرَام». وهذا تَمَامُ العقل، وكَمَالُ التَّوفيق!

وفي ذكر هابيل للمَآلِ الذي يهوي فيه القاتلُ المعتدي؛ حينَ قال لأخيه: ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾. ما يدعوا للتساؤل؛ هل قَصَّ عليهم آدم عليه السلام خَبَرَ الجنَّةِ والنَّار، باعتباره شاهد عيان؟! وهل بَيَّنَ لهم أثَرَ الخطيئة، والتَّماهي مع النَّفْس فيما تشتهيه..؟!



من خلالِ حوارِ هابيل؛ يبدو أنه مُدْرِكٌ لكلِّ هذه الأمور؛ ويَتَّضِحُ هذا في حضور فكرةِ النَّارِ مآلًا لمن تَعَدَّى على الآخرِ بالعدوانِ عليه.. فتكونَ من أصحابِ النَّار مُسْتَقَرًّا، وتلكَ ضَريبةُ الظُّلمِ الوخيم!

ويبقى السؤال؛ هل حضورُ هذه «الأفكارِ الكُبْرَى» لدى هابيل كانَ يفتقدها قابيل، أم أنَّ قَابيل أيضًا تلقَّى مثل هذه المفاهيم والحقائق إلا أنه حَادَ عنها.. وانساقَ مع شَهْوةِ النَّفْسِ وحظوظها، وانتصَرَ لها، بدَافِعِ الحَسَدِ الذي يُعْمِي -غَالِبًا- عنِ الحقَائِقِ والبَصَائِرِ؟

ولم يشفع له كونه ابنَ نَبي، أن يَثْبُتَ على طَريقِ «الهدايَة»، وأن تَقَعَ هذه المفاهيم في قلبه وتَسْتَقِرَّ فيه.. أضَاعَ كلَّ شيءٍ في لحظةِ «توحشٍ للنَّفْس»، أثارها دَاءُ الحَسَد، فطاشتْ وتَاهَتْ، وعَمِيَتْ فنَسِيَتْ؛ فوقَعَتْ في الطُّغْيَان!

التَّسَامي عنِ الجاهلية!

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 82].

كانَ ولا يزَالَ «الطُّهر» تهمةً تستدعي الطَّرد والإخراجَ والتأليبَ والتنكيل، كانَ ذنبُ نبيِّ الله لوط ﷺ أنّه ترَفَّعَ وتَطَهَّرَ عن الخبَثِ الذي ابتُلي به قومه، فأصبحَ في نظرهم منبوذًا يستحقُّ الإخراجَ والطَرد، وهذا إمعانٌ منهم في التَّمَاهي مع الجريمةِ والتَّعَلُّقِ بها، واعتبارها مَعْرُوفًا وخلافها المنكَر!!!

ولهذا، استحقُّوا العقوبةَ الغليظة؛ بسببِ **«اختلالِ المفاهيم»** وانتكَاسِ الفطرةِ الذي جعلهم يعتبرونَ المتَرَفِّعَ عن الشُذُوذِ دَعِيًّا يَدَّعِي الطَّهَارَةَ وعُقَوبَتَه الإِخْرَاج..!

لا تزالُ الفكرةُ قائمة.. فكم من دَاعٍ إلى الله يُطْرَدُ ويُسْجَنُ



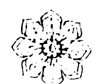
ويُشَهَّرُ به ويُسَاقُ إلى حَبْلِ المشنقةِ؛ لأَنَّه تَرَفَّعَ وتَسَامى عنِ الجاهليَّةِ التي غَرِقَ فيها قومُه، واعتبروها الحَقَّ الذي سَوَّلتْ لهم أنفسهم طَرد وإخراج وتصفيةِ كل من يَقِفُ في وجهِ فكرتهم التي خَطَّهَا الشَّيْطَان، واعتقدوا أنها الطُّهر الذي لا محيدَ عَنْه.

الحب

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة يوسف: 8].

عندما لاحتْ لإخوة يوسف عليه السلام فكرةُ المكيدةِ له، كانَ لديهم خَلَلٌ في المفاهيم، فهم يعتقدونَ أنَّ كونهم عُصْبَة أشقَّاء، فهم للحُبِّ أحقُّ وأولى، فكيفَ يستأثرُ هذانِ الأخوان بحبِّ أبيهم دونهم، وهم عُصْبَة -أي: جماعة كبيرة- لها شأنها واعتبارها؟ وكيف يفضِّلُ الأب الاثنين على العشرة؟ إنَّ ذلكَ أمرٌ غير مستساغ، وتقديرٌ غير سليم، فهم أحقُّ بالحبِّ وأولى به من يوسف وأخيه.

وغابَ عنهم أنّ الحبَّ لا يعترفُ بالكثرةِ أو أي شيءٍ آخر قد يؤثرُ عليه.. هو أمرٌ قلبيٌ لا تحكمه القوانين، ونورٌ تَوهَّجَ دونما



سَبَب، وهو رزقٌ كغيره من الأرزاقِ، وأمرٌ فطريٌّ يحمله المحِبُّ للمحبوبِ دونَ شعورٍ منه.. وقد أودى بهم هذا الخَلَلُ في التصور «فاختلَّ تقديرهم للوقائع، وتضخُم في حسهم أشياءُ صغيرةٌ، وتهون أحداث ضخام، تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح، روح غلام بريء لا يملكُ دفعًا عن نفسه، وهو لهم أخ. وهم أبناء نبي- وإن لم يكونوا هم أنبياء- يهون هذا. وتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب. حتى توازي القتل»[1]. وهذا انحدارٌ في الفهم، واغتيالٌ لحقِّ العقلِ في التَّفْكِير.

وقد قالَ الإمام محمد بن داود الظَّاهري رحمه الله:

ومَا الحبُّ من حُسْنٍ ولا مِنْ مَلاحَةٍ
[ولكنَّه] شَـيءٌ به النَّفْـسُ تكْلفُ

وقبل ذلك، حَدَّثَتْ الصديقة بنت الصِّدِّيق عائشة رضي الله عنها، أنَّ رَسُولَ اللهِّ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلاَ تَلُمْنِى فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ**». قال أبو داود: يعني القلب[2].

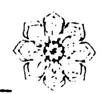
وهنا بيانٌ أنَّ ما لم يكتسبه من ذلكَ هو ما لم يملكه ولم يستطعْه، مما لا حيلةَ له في دفْعِه من الميلِ القلبي والدَّاعية الطبيعية؛ يريدُ به

(1) «في ظلال القرآن» (4/ 1973).

(2) «سنن أبي داود»، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ط/ دار الكتاب العربي - بيروت، (2/ 208).

مَيْلَ النَّفْس والقلب وزيادةِ المحبة، وما اكتسبَه من ذلكَ هو الذي استطاعه!

وهذا الفَهْم لحقيقةِ الحبِّ وطبيعته؛ لمْ يُدركه إِخوة يوسف عليه السلام حينما آذوا أَخَاهم على ذنبٍ لم يقترفه، وعلى مَيْلٍ لمْ يَمْلِك أَبَاه أن يدفعه عنْ قلبِه!



فكرة التخلّص

قال تعالى: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ [سورة يوسف: 9].

الفكرةُ ما زالت قائمةً وإن حَدَثَ تَغَيُّرٌ في الأسلوب يبقى المضمونُ قَائِمًا، القتلُ والتَّصفية؛ من أجلِ أن يخلو الجو (الهدف) الذي من أجله تُرتَكَبُ الجرَائم... (وجْه أبيكُم، وجْه القبيلة، الحزب، القائد، الزَّعِيم، السيِّد، الدَّولة الأجنبية). وبذَلِكَ التَّخَلُّص بالقتلِ أو الطَّرْح يبرزُ الصَّلاحُ الموهوم الذي ينشده أصحابُ فكرِ «التخلُّص» ويصبحُ القَاتِلُ وجِيهًا صَالحًا في مجتمعه، بل، وأحيانًا تكونُ فعلته جِهَادًا في زَمَنِ الزَّيْف!

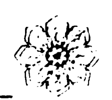
أَلَمٌ

قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [سورة مريم: 23].

كانت السيِّدة مريم تعاني -حينئذٍ- من آلام متعددةٍ، لكنَّ الألمَ الغائر الذي تمنَّت أن تكُونَ بسببه نَسْيًا مَنْسِيًّا.. ألمُ «الاتهامِ المباشر» من بني قومها ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [سورة مريم: 28].

وكرامةً لهذه السيدةِ العفيفة؛ أجرى الله أمرًا خارقًا لم تألفه البشرية.. حديثَ طفلٍ في المهد يصدَحُ بالتَّوحيد، ويبشِّرُ بالكتاب، يبرِّئُ أمَّه التي تمنَّتْ أنْ تكون ﴿نَسْيًا﴾، فأصبحتْ عَلامةً فارقةً في الصَبْرِ والتضحيةِ، وأيقونةً للعفَّةِ على مَرِّ الأزمَان.

في تلكَ اللحظةِ التي قالت فيها مريم: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا



﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، كانت تعاني من آلامِ النَّفْس والجَسَد ما تَنُوْءُ عن حمله الجبال، تَمَنَّت أن لو كَانت نَسْيًا مَنْسِيًّا هَبَاءً لا ذِكْرَ لها، أن تكونَ كالعَدَم، تمنَّت لو كانت شيئًا تافهًا لا يؤبه له، أحب إليها من مجتمعٍ سيقتلها مَرَّاتٍ ومَرَّاتٍ بسَوْطِ لسانه، وسيعيرها بما هي بريئةٌ منه، لكنَّ العظيمَ الذي أرادها أن تكونَ سَيِّدة من سَيِّدَاتِ النِّسَاء على مَرِّ العُصُور، قال لها بعد أن ضاقت بها السُبُل، واشتدَّت بها الكروب، واستبَدَّ بها الألم، وأنهكتها الأحزان: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾، ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ [سورة مريم: 24-26].

الوثبة الكبرى والانتقال المدهش

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 58 - 59].

للوقوفِ على الوثبةِ الكبرى التي انتقلت فيها المرأة في صَدرِ الإسلام من حالٍ إلى حال؛ يجبُ أن ننظرَ إلى الواقعِ الذي كانت تعيشُ فيه، وتحقُّقِ قيمتها كإنسانٍ في تلكَ الحقبةِ إلى أيِّ مدى؟!

تأمَّل فقط دلالات الألفاظِ في الآيات، إذ تصوِّرُ حالَ والدِ بُشِّرَ بولادةِ فتاة؛ ثمَّ انظر حجمَ العِبء الذي كانت تشكِّله المرأة، من خلالِ ردَّة الفعلِ التي تصدرُ ممن جاءته البشرى، وطريقة النَّظر إليها كمخلوقٍ هامشيٍّ غير مرغوبٍ فيه، بل، واعتبارها مصيبة هبطت على رأسِ والدها.



وبعد مقارنةِ دلالاتِ الألفاظ الكثيفة في هذه الآيات، من اسودادِ الوجه، والشُّعور بالهمِّ والغم، وتواريه عن قومه كراهةَ أن يلقاهم متلبِّسًا بما ساءه من الحزنِ والكرب؛ بسببِ الفتاة التي ولدتْ له! ثُمَّ الحيرة التي تضربُ رأسه، أيبقيها حية على ذلٍّ وهوان وشعورٍ بالخزي، أم يتخلص من عبء الشُّعور الذي يأكل قلبه، ويدسُّها في التراب؟!

قارن كل ذلك بالانتقالِ المدهش الذي حدثَ للمرأةِ في عصرِ الرسالة، حال تنزُّلِ الكتاب الإلهي؛ وما أحدثه من ثورة في التطورات والأوضاع، وفي المشاعر والضمائر. «وهي بعد نظرة علوية لم تنشئها ضرورة واقعية ولا دعوة أرضية ولا مقتضيات اجتماعية أو اقتصادية. إنما أنشأتها العقيدة الإلهية الصادرة عن الله الذي كرَّم الإنسان، فاستتبع تكريمه للجنس البشري تكريمه للأنثى، ووصفها بأنها شطر النَّفس البشرية»[1].

كان مفتتحُ ذلك من نُصرة النَّبيِّ من قبلِ امرأة، تشرَّب قلبها نداء السَّماء، ثم الإكرام الذي نزلَ في حقِّ النِّساء، والارتفاع بمكانتهنَّ سواء بسواء مع الرَّجل، وتسمية سورة في القرآن الكريم باسمهنَّ، والتبشير بالجنة لمن رزقَ فتياتٍ فأحسنَ تربيتهن.

(1) «في ظلال القرآن» (4 / 472).

بمعنى أنَّ التصور الإسلامي أعاد توجيه الفطرة إلى مكانها، والفطرة تقتضي حبَّ الأولاد ذكورًا وإناثًا، والفرح بهم، والاستبشار بقدومهم، وزاد الفتيات تخصيصًا؛ طمسًا للفكرة المظلمةِ عنهنَّ في عصور ما قبل نزولِ النُّور من السَّماء..!

وما زال الإكرامُ الذي حظيت به المرأة منذ تنزَّلَ البيان الخالد إلى اليوم، يحافظُ على حقِّ المرأةِ ومكانتها، مع تقدُّمِ الأزمان المتسارع، والتغير الشائك الذي طرأَ في قضايا المرأة!

والإشكال الذي وقعَ «حول المرأة» في منظومةِ الفكر الإسلامي، يعودُ إلى بعضِ الأفهام التي مزجت بين عاداتِ العربِ والعقل الجمعي السَّائد، وبين تصور الإسلام النَّقي؛ فراحت تنظرُ إلى المرأةِ من هذا المنظار، ثم أذاعت كل ذلكَ باسمِ الإسلام.

ولو نظرت إلى النَّص القرآني في حديثه عن المرأة، وارتفاعه بمقامها، لوجدنا سموًّا في التَّصور، وإكرامًا في المقام، وانتصارًا لها، وابتعادًا عن التَّصورات المغلوطة التي التصقت بها منذ أزمانٍ غابرة. فأبان عن انقلابٍ في الرؤية حيال الأنثى، إذ أبان أنها أصيلة في نظامِ الحياة أصالةَ الذَّكر؛ بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر.

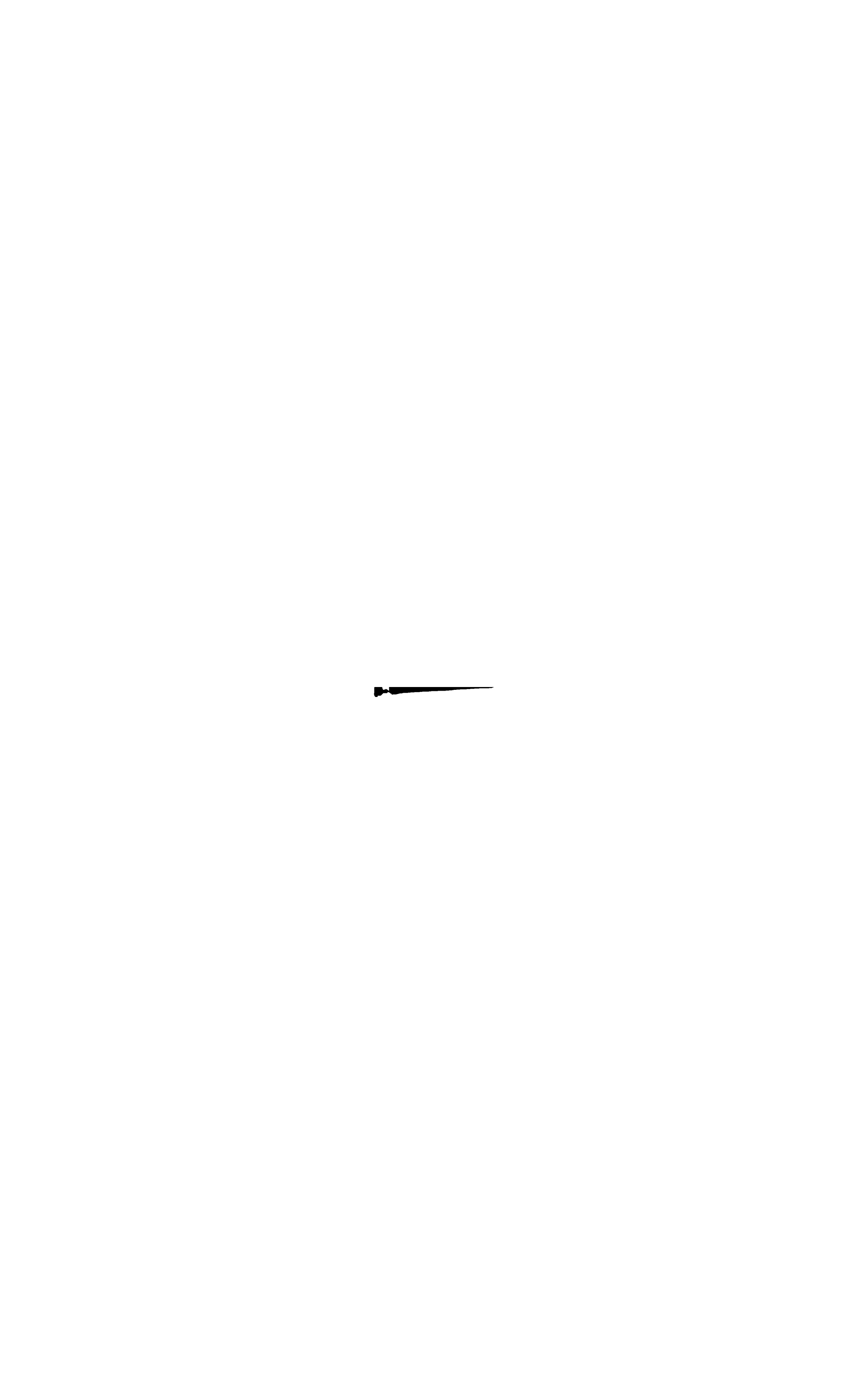
لقد نزلَ القرآن حاسمًا لهذا الأمر، وبيَّنَ دونما مواربة؛ أنَّ «الأنثى نفس إنسانية، إهانتها إهانة للعنصر الإنساني الكريم،



ووأدها قتلٌ للنَّفسِ البشرية، وإهدارٌ لشطر الحياة؛ ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة، التي اقتضت أن يكون الأحياء جميعًا لا الإنسان وحده من ذكرٍ وأنثى»[1].

(1) «في ظلال القرآن» (4/ 472).

مقام العمران والتغيير





مدخل

تحتلُّ قضيةَ إِعمارِ الأرض في المنظومةِ الإسلامية منزلةً مهمة، فالمتأمِّلُ في النُّصوصِ الشَّرعية يقفُ فيها على اهتمامٍ كبيرٍ بعمارةِ الأرض، والارتقاءِ بها، ويجدُ فيها إبرازًا مُكَثَّفًا لها، فالنُّصوصُ تشيرُ إلى قضيةِ خلافةِ الإنسانِ في الأَرض، وتارةً تشرحُ حقيقتها ومتطلباتها، وتارةً تستحثُّ الهممَ على امتثالها والمبادرةِ إليها، وتارةً تشيرُ إلى الأعمال المنافيةِ للاستخلافِ وعمارة الأرض، وتارةً تَذكُرُ ذلكَ في سياقِ الامتنانِ والنِّعَم، فهذه الحفاوة والاهتمام المتتالي يدلُّ على أهميةِ هذه القضية في المنظور القرآني، وأنها ليست أمرًا ثانويًّا فيها؛ إذ إنها لا تبرزُ قضية بذلكَ الشَّكل إلا إذا كانت عاليةَ الشَّأنِ كبيرةَ القدر.

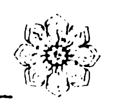
ومما يدلُّ على أهميتها: أنَّ اللهَ تعالى في سياقِ الأدلة على استحقاقه للعبودية يُكرِّرُ الامتنان على عباده بأن جَعَلَ لهم الأرضَ

مَهْدًا وسَلَكَ لهم فيها السُبُل، وجَعَلَها مُسَخَّرَةً ومذلَّلَةً لهم، وهذا التأكيد والتَّكرير منَ الله تعالى دليلٌ على عَظَمةِ عمارة الأرض وعُلُوِ منزلتها؛ إذ لو لم تكنْ عظيمة لما حَظِيَت بذلكَ الذِّكْرِ المتكرر.

ولهذا، يسعى القرآنُ الكريمُ من خلالِ مشروع الإِعمار عَبر مفهومِ التَّسْخِير، أي: تسخير الكونِ للإنسان؛ إلى بلوغِ مقاصد وغايات إصلاح الكون وعمارته تحقيقًا لمهمةِ الاستخلافِ في الأرض وعبوديةِ الإنسانِ لله تعالى.

وفي هذا الفصل، بيانٌ لثَمَرةِ التَّوحيد، والتَّزكية، وهو مَقَام العمران المنشود. وقد تَمَّ التَّطَرُّقُ إلى حقيقةِ الاستخلاف، ونظرةِ القرآن إلى الإنسانِ المستَخْلَف في النُّزولِ الأول من خلالِ سُورةِ العلق، وبيانِ حقيقة الذَّم التي يتصفُ بها في بعضِ النُّصوصِ القرآنية.

وإظهارِ أَثَرِ الفَرْد في تحقيقِ الإعمار؛ من خلالِ التغييرِ الفردي وأثره في حمايةِ كيان المجتمع وبنائه، وذلكَ أنَّ أول ما تبتدئ المسئولية في نَظَرِ الإسلام من «الفرد». إنها تبتدئُ منه، فهو الذي يكونُ الجماعة والأمَّة. فما الأمَّة إلا أفراد التقت على مسيرةٍ واحدة، ودرب واحد، ونهج واحد، وفي نَظَرِ الإِسلام تكونُ الأمَّة المسلمة هي مجموعة الأفراد الذين يخضعُ كل واحدٍ منهم لمنهاجِ الله، وتخضعُ الأمَّة كلها كذلكَ لمنهاجِ الله القائمِ على التَّوحيدِ والتَّزكيةِ والعمران.



إنَّ تحقيقَ مقام التوحيد، يثمرُ تصورًا واضحًا لإعمار الأرض بشقَّيْه «الإيماني والمادي»، وكل ذلكَ يورثُ حَصَانة من أَوضَارِ الانبهارِ الغَالب للعمرانِ المادي، القائمِ على فكرةِ السَّيطَرةِ والاستحواذ، ومبدأِ القُوَّة. كَما يورثُ تحقيقَ العدالةِ الشَّاملة التي يَنْعَمُ بها الإِنسان؛ وهي ثَمَرَةٌ مباركةٌ لتحققِ العبودية، وتفعيلِ نظريةِ الاستخلافِ الإنسانيِّ في الأرض، فلا عمرانَ إلا بالعَدْل، والعَدْلُ أَسَاسُ العمران.

استخلافُ الإنسان

في سورتي «البقرة والعلق»

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [سورة البقرة: 30 – 33].

إنَّ التَّكْرِيمَ الإلَهِي الذي حَظِيَ به الإنسانُ في القرآنِ الكريم، لم يقتصر ولم يتوقَّف على خَلْقِه في أحْسَنِ تقويم، وتسخير كل ما في الكَونِ لخدمته؛ وإنَّما تخطَّى كل هذا ليبلُغَ منتهاه في تكْريمِ الله



له باستخلافه في الأرض؛ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30].

فخلافةُ الإنسان هي التَّكْريمُ الإلهيُّ الأعظم أَثَرًا، وهي التَّعبيرُ القرآني للحَضَارةِ الإنسانيةِ الصحيحةِ.

وقد بَدَأت أول إشارةٍ إلى كَوْنِ الإنسانِ خليفةً في الحوارِ الإلهي مع الملائكةِ قبلَ خلقِ آدم ﷺ، جاءَ هذا الحوارُ المصيري العظيم في سورةِ البقرة، ليُعلنَ المهمة الرئيسة للإنسانِ على الأرض، وحَمَلت أوَّلُ سورِ القرآنِ نزولًا صفاتِ هذا الإنسانِ الخليفة الذي حَمَل أمانةَ التكليف؛ لإعمارِ الأرض، وتعبيدِ الخلقِ لله، وإرساءِ قِيَمِ العَدْلِ والحق.

ومن المهم أن يلحَظَ المرءُ التَرَابط والتَّنَاسُب بين مهمةِ الخلافة وبينَ تعليمِ الله لآدم ﷺ في آياتِ الاستخلاف في سورةِ البقرة، الموضع القرآنيِّ الوحيد الذي ذُكِرَت فيه الخلافة الإنسانية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30]، في سِيَاقِ الحديثِ عن خَلْقِ آدم ﷺ وقصة سجود الملائكة له المتكرر في القرآنِ الكريم، هذا الموضع من القرآن المدني يظهر تَنَاسُبَه الجلي مع مَطْلَعِ سُورةِ العَلَق النُّزُول الأول[1].

(1) ينظر: «عودة إدريسي» ندين بنت مصطفى السليمي، ط/ 1، الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت: 1435-2014م، ص: 96.

ألا ترى إلى أول آيةٍ قُرآنيةٍ من حيثُ النُّزول، كَيفَ بَدَأَت فاتَّجهت إلى الإنسان تُعَرِّفُه بذاته، وتشرحُ له أصله ومَصْدَرَه، وهي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [سورة العلق: 1-2].

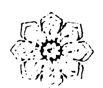
ثم انظر إلى أوائلِ الآياتِ القرآنية من حيثُ التَّرتيبُ الكِتَابي، كيفَ بدأت هي الأخرى بالحديثِ عنِ الإنسان، فَقَسَّمَتْه إلى مُؤمنٍ وجاحدٍ ومنافقٍ؛ ثمَّ خاطبت هَؤلاءِ الأقسام جميعًا فعرفهم هُويَّاتِهم، وأنبأهم بقصَّةِ نشأتهم فوقَ هذه الأرض، وكيفية خلق الله لأبيهم آدم ﷺ، والمنزلةِ الكريمة التي أنزله الله إياها من بينِ سائرِ مخلوقاته، والتَّكريم الذي مَنَّ عليه به حتى على الملائكة.

ومجيء استخلاف آدم ﷺ في الأرضِ في التَّرتيبِ المكاني الأول في القرآنِ الكريم، هو أنسَبُ مكانٍ له؛ إذِ الاستخلافُ لا بُدَّ أن يَتِمَّ له أمران[1]:

الأول: أن يكونَ للخليفةِ حقُّ التصرفِ والتَّدبيرِ فيما اَسْتُخْلِفَ فيه.

والثاني: أن تكون له القُدرةُ على هذا التصرفِ، وأن يكون اختياره قائمًا على العلم بإمكانياته وقدراته على هذا الاستخلاف.

(1) ينظر: «التعبير القرآني»، د. فاضل صالح السامرائي، ط/ 8، دار عمار- عمان: 1434هـ - 2012م، ص: 292-293.



أمَّا الجانب الأول وهو جانبُ التَّدبير والتصرُّف فقد فوضه به ربه بأوسعِ نطاق، بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: 29]، فلو لم يخلق له ما في الأرض جميعًا ما صَحَّ أن يكونَ خليفةً لله فيها.

وأمَّا من حيثُ إمكانياته وقدراته فقد تَبَيَّنَ بالاختبارِ أنه أصلحُ المخلوقاتِ لهذه المِهمَّة؛ لتعليمِ الله له ما لم يعلم، هذا فضلًا على ذلك أنَّ الذي اختاره عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَة.

وهكذا، يُلاحظُ الرَّبْطُ الوثيقُ في كلا السُّورتين؛ فالقرآنُ الكريم بَدَأَ قَبْلَ كُلِّ شيء، وحسب أسبقيةِ كلٍّ مِنْ التَّرتيبِ الكتابيِّ، والنُّزولِ الزَّمَانيِّ في سورتَي البَقَرةِ والعَلَق بتعريفِ الإنسان بذاته، وتبصيره بأصله، ومدى أهميته ومكانته في هذا الكونِ الذي يعيشُ فيه، والمهمَّة التي أُوكِلَتْ إليه، إذ بَيَّنَ الله -في كلا السُّوْرَتَين- أنَّ العلمَ مناط تكريمِ آدم عليه السلام، الإنسان الأول، واستحقاقه بذلكَ الخلافة في الأرضِ التي سَخَّرَها الله له.

ومن مظاهرِ الصِّلة بينَ السُّورتين، أنَّ الله عَلَّم آدم عليه السلام ما لم يعلم، علَّمه أنه تعالى الخالق، وعَلَّمه الأسماء كُلَّها[1]، ثمَّ وَلاَّه

---

(1) قال الإمام القرطبي: «علَّمَه أسماء كل شيء، فلم يبقَ شيء إلا وعلَّم سبحانه آدم اسمه بكلِّ لغة، وذكره آدم للملائكة كما علمه». «الجامع لأحكام القرآن» 20/ 122.

والأسماء ما هي إلا عناوين الأشياء وتعريفاتها وخصائصها ومنافعها ومضارها

خلافة الأرض، وكأنَّ الآيات تقولُ لنا إنَّ (التعلُّم) قبلَ الخلافة، إنَّكَ لا تبدأ المهمة بدونِ المعرفة التي تحصلُ بالقراءة، ولا تنطلقُ وتتحرك بدونِ استعدادٍ علمي قِيَمِي ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: 31]، بل إنَّكَ لا تصلحُ للمهمة إذا لم تكن ذلك الإِنسان في سورةِ العلق؛ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: 5][1].

فالآيات في سورتي العلق والبقرة -آيات الاستخلاف- تُشير بوضوح إلى الشمول العلمي والتنوع المعرفي، الذي ينبغي أن يكونَ عليه الإنسانُ الخليفة، وذلك من قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، وفي سورة التَّعليم -سورة اقرأ- يشير الله لتلك الحقيقة: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: 5]، وقبلها: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [سورة العلق: 1]، دونَ تحديدِ المقروء، المهم أن يكون تحت مظلة ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، فالقراءةُ باسمِ الإله تشمل كل ما يُقْرَأ من الفنونِ والعلومِ والمعارف، التي تتحول إلى علوم ربَّانية إذا قُرِئَت باسم الرَّبِّ سبحانه، فَما من شيء خارج عن دائرةِ الرَّبَانية شرطَ أن تقرأه باسْمِ ربِّك، فعمومُ الأسماءِ

= التي لها أهمية بالغة في مجال الخلافة في الأرض، ولا يحقق الإنسان نظرية الاستخلاف إلا بإدراكه لهذا العلم الذي علمه الله للإنسان الأول. ينظر: «بين علم آدم والعلم الحديث» محمد شهاب الدين الندوي، مجلة دعوة الحق، 1986م، مكة المكرمة- رابطة العالم الإسلامي، العدد 61، ص: 9.

(1) ينظر: «عودة إدريسي» ص: 96.



وشمولها التي عَلَّمَهَا الله آدم الخليفة الأول، تُلقي بظلالها على النُّزُولِ الأول الذي حَمَلَ أول كلمةٍ معرفية شاملةٍ نَزَلَ بها الوحي الأمين جبريل عليه السلام على قلبِ الأُمِّيِّ المُخْتَلِي في حِرَائِه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ﴾، لتقولَ: إنَّ كل شيءٍ في هذا الكون بحاجةٍ إلى قراءةٍ شاملة، يُسْتَقْصَى من خلالها المقروء، لنكونَ أصحاب معرفةٍ واسعة، تؤهلنا للقيامِ بمهامِ الخلافةِ الإنسانية.

وعندما بَيَّنَ الله تعالى للملائكةِ أَنَّه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾، بيَّنَ أنَّ مؤهِّله الأول للخِلافةِ هو العلم، ولذا كَانَ أول عَمَلٍ زاوله آدم عليه السلام هو التَّعَلُّم.. وأعظم وسائل التَّعَلُّم؛ القراءة، ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، والقلم: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، فالتَّنَاسُبُ والتَّرَابُطُ بينهما بَيِّنٌ ظَاهِر.

إنَّ الإنسانَ في سورتي «التِّين والعلق»، له امتدادٌ واضح للإنسانِ في آيات الاستخلاف في سورة البقرة؛ من جهةِ التَّكريم والانحراف، فإخبار الله تعالى عن الإنسان الذي انحرفَ عن فطرة التقويم: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: 5]، واستغنى بما لديه، فَأَدَّاه ذلكَ للطُّغْيَان: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [سورة العلق: 6-7]، هو ذاته الإنسان الذي تَعَجَّبَتِ الملائكة من جَعْلِه خليفة: ﴿أَتَجْعَلُ فيها من يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّمَاء ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [سورة البقرة: 30]. «لأنَّه ركبت فيه الشهوة، وإذا غلبت أفسدت، وإنَّ الشهوات إذا تحكمت

كانتِ الأثرة، وكانَ التنازعُ، ومع التنازع سفكُ الدماء»[1]، والفساد في الأرضِ والطغيان.

فنموذجُ الإنسان في السورِ الثَّلاث هو الضدُّ لما عليه الإنسان الخليفة، ويمثل نموذج الانحراف، المتبني لنواقضِ الاستخلاف وقِيَمِه، فالذينَ قَاموا بمهامِ الخلافة واستقاموا على النَّهْجِ الذي رَسَمَه الله لهم في النُّهُوض ببناء المجتمعِ الإِنساني، وعمارة الأَرض، ازدادوا علوًّا وكَرَامةً عندَ الله، والذينَ أعرضوا عن مسؤولياتِ هذه الخلافة، واستجابوا لرعوناتِ أنفسهم، وما تشتَهِيه أهواؤهم، أُسْقِطُوا من صعيد التَّكريم، وردوا إلى أسفل من الحضيض الذي تتلاقى فيه الأنعام.

تَأَمَّل في هذا الذي يقوله البَيَان الإِلهي عَمَّن وَفَّى حَقَّ تَكريم الله له فازدادَ كَرَامة وعلوًّا، وعمَّن خان حَقَّ هذا التَّكريم فهوى إلى أسفل سافلين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[سورة التين: 4-6].

ومثله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [سورة العلق: 4-7]، وفي الختام: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾.

---

(1) «زهرة التفاسير» محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، ط/ دار الفكر العربي، (1/ 194).



وما يمكنُ أن يصلَ إليه الباحثُ من بيانِ الرَّابط والتَّنَاسُب بينَ سورةِ العَلَق وآياتِ الاستخلافِ في سورة البقرة: استخراجُ صفاتِ الإنسانِ الخليفة من سورةِ العَلَق، للخليفةِ المُشَار إليه في سورةِ البقرة، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: 30][1].

(1) وقد بينتُ ذلكَ -بشكلٍ مستفيضٍ- في رسالتي للماجستير، بعنوان: (الإنسان الخليفة في ضوء سورة العلق «دراسة مقارنة بالكتابِ المقَدَّس»)، جامعة الحديدة، كلية التربية، 2017م.

النَّظرة القرآنية للإنسان
في سورة «العلق»

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ [العلق: 1 – 6].

إنَّ النظرة القرآنية للإنسانِ في كلِّ أطواره وأحواله هي نظرة جامعة لكل خير ومانعة لكلِّ شر، ذلكَ أنَّ الإنسان في القرآن الكريم هو الشخصية المحورية المخلوقة للعبادةِ والاستخلاف في الأرض، وإصلاحِ ما فيها من فساد، واستعمارها بالوعدِ الإلهي، «ومن عنايةِ القرآن به أنَّ أول فوجٍ من آياتِ الوحي الإلهي استقبله قلبُ النبي ﷺ لم يُغفل شأنَ الإنسان وعلاقته بربه: علاقةُ الخلقِ والإيجاد، وعلاقةُ التعليمِ والهداية»[1]؛ فالقرآن يُحفُلُ بالإنسانِ بما

---

(1) ينظر: «من أجل صحوة راشدة تجدد الدين، وتنهض بالأمة» د. يوسف القرضاوي، ط/ 1، مؤسسة الرسالة- بيروت، 1422هـ- 2001م، ص: 88.



لا يحفل بغيره، فهو يبدأ قبل كل شيء بتعريفِ الإنسان بذاته؛ ترى ذلكَ واضحًا فيه سواء من حيث أسبقية التَّرتيب أو النزول. ألا ترى إلى أول آيةٍ قرآنيةٍ من حيث النزول، كيفَ بَدَأَت فاتَّجهت إلى الإنسان تعرفه بذاته، وتشرح له أصله ومصدره، وهي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [سورة العلق: 1-2].

فالنَّاظِرُ في القرآن والمتدَبِّر لآياته وموضوعاته، يستطيعُ أن يصفَ القرآنَ الكريم بأنه «كتابُ الإنسان»، ويصحُّ القول: إنَّ المقصودَ من كلِّ ما في القرآن إنما هو الإنسان، ولا أدلَّ على ذلكَ من أنَّ أول ما نَزَلَ من آياتِ القرآن على رسول الله سورةُ العلق، ومضمونها العناية بالإنسان؛ الذي شَرَّفه الله بالعلمِ ليكونَ خليفته في أرضه.

«ومن خلال سورة العلق يمكنُ أن نجتلي الملامح العامة للإنسان، وقد تكرَّر ذكره في هذه السورة الأولى ثلاث مرات:

إحداها: تلفِتُ إلى آية خلقه من علق.

والثانية: تشير إلى اختصاصه بالعلم.

والثالثة: تحذِّر مما يتورطُ فيه من طغيان، حين يتمادى به الغرور فيرى أنه استغنى عن خالقه»[1].

---

(1) القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ط/ دار المعارف، القاهرة، ص: 20.

وسورة العلق تُقدِّم الإنسان منذُ لحظاتِ النزول الأولى للقرآن الكريم؛ كمخلوقٍ غائي هادف قادر عبر الخلق والعلم أن يتحرك نحو الأعلى؛ لتحقيق الغاية العظمى من وجوده، وقد أجملت كل حياةِ الإنسان، وأشارت إلى كل ما تضمنه القرآن، وألمحت هذه السورة إلى أن هذا القرآن كتابُ السماء، فقد تضمنت هذه الآيات عقيدة التوحيد، وخلق الإنسان، والأصل الذي خلق منه، وبعثة الرسول محمد ﷺ والتنويه بمكانة العلم، وبمنزلة القلم، ووصف الله نفسه في هذه الآيات بأربع صفات:

أنه ربُّ محمد ﷺ، وأنه خلق كل كائن، وبخاصة الإنسان، وبأنه الأكرم، وبأنه علم الإنسان، وعلَّم بالقلم[1].

لقد ذُكرَ الإنسانُ في السورة ثلاث مرَّات:

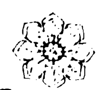
﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [سورة العلق: 2]، ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [سورة العلق: 5]، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ [سورة العلق: 6].

فالإنسانُ في الآيةِ الأولى؛ هو ابنُ آدم، والآية تَذكيرٌ بأصْلِ الخلقة، «وتخصيصُ الإنسان بالذِّكْرِ من بين ما يتناوله الخلق؛ لأنَّ التنزيل إليه وهو أشرفُ ما على الأرض»[2].

---

(1) ينظر: «من حديث القرآن عن الإنسان»، د. علي العماري، مجلة دعوة الحق، 1989م، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، عدد: 87، ص: 67.

(2) «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» جار الله



والإنسان في الآية الثانية؛ هو الإنسان الأول الذي خلقه الله وجعله خليفة وأسجد له ملائكته، آدم عليه السلام، آدم هنا قد تمتد لتعني جنس الإنسان عمومًا[1].

وفي الآية إشارة «للتعليم وقابلية المعرفة لدى الإنسان»[2]، فـ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ﴾ هو -سبحانه- الذي وهَبَ الحياة لهذا الإنسان الذي خلقه من عدم، ثم وهبه أشرف ما في هذه الحياة وهو العلم؛ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: 78].

ومن عجيب ما لاحظه العلم في أمر الإنسان: «أنَّ النفوس الإنسانية في أول الفطرة أقلُّ فهمًا وذكاءً وفطنة من نفوسِ سائر الحيوانات، ألا ترى أن ولد الدجاجة كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق، فيهرب من الهرة، ويلتجئ إلى الأم، ويميز بين الغذاء الذي يوافقه والغذاء الذي لا يوافقه، وأما ولد

أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق مهدي، ط/ دار الكتاب العربي- بيروت، 1407هـ (4/ 781).

(1) ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالإنسان هنا الرسول ﷺ كمعنى ثالث للإنسان. ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» (20/ 122).

(2) «إشراقات قرآنية «جزء عم»» د. سلمان بن فهد العودة، ط/ 2، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، الرياض: 1433هـ (2/ 112).

الإنسان فإنه حال انفصاله عن بطن الأم لا يميز -البتة- بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع»[1].

وهذا يدلُّ أنَّ انتقال الإنسان من هذا الجهل المفرط في الجهالة إلى العلم الواسع لا يمكن أن يكون عن طريق المصادفة أو عن القوانين الطبيعية -كما يقول الماديون الملحدون-!! بل لابدَّ لذلك من تدبير إله مختار قادر حكيم، ينقل الأنفس من نقصانها إلى كمالاتها، ومن جهالاتها إلى معارفها[2].

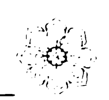
وذِكْرُ (الإنسان) هنا مع الإنسان في الآية السابقة، يشير إلى السُنَّة الطبيعية التي أرادها الله لبني آدم، للإنسان ودوره الطبيعي كخليفة؛ أراد الله له أن يتحرك ليأخذ بأسباب العلم، والقراءة، والقلم[3].

أمَّا الإنسان في الآية الثالثة فهو مثالٌ لانحرافِ القيم، ونموذج لطغيان الإنسان الذي نسيَ أصلَ خِلقته، وسخَّر العلمَ لطغيانه، فاستغنى بما لديه عمَّا عند الله الذي منَّ عليه بالخلق، وشرفه بالعلم والقلم.

(1) «مفاتيح الغيب» فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، ط/ 1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1421هـ- 2000 م، (19/ 180).

(2) ينظر: «من حديث القرآن»، ص: 68.

(3) ينظر: «عودة إدريسي»، ص: 90.



ولهذا حذَّر الله من هذا النموذج المنحرف للإنسان «نموذج الطغيان بالعلم»، وبيَّنَ أن العلمَ إذا انفصلَ عن القيمِ والأخلاق والفضائل صار طغيانًا.

وهكذا: فإنَّ هذه السورة «إنما هي آية الله في هذا الإنسان، خلقه من علق، وخصَّه بالعلم، واحتمل أمانة التكليف، فازدهاه الغرور وأطغاه الشعور بوهم الاستغناء عن خالقه، فنسي أنه إليه، سبحانه، الرجعى والمصير...، وهذه هي قصة الإنسان، من المبدأ إلى المنتهى، تلفت إليه سورة الوحي الأولى، بإيجاز، توطئة لما سوف يتتابع من آياتِ الوحي التي تزيد كل هذه الملامح المجملة تفصيلًا وبيانًا»[1].

وجملة القول: فإنَّ سورة العلق تجسِّد النظرة القرآنية للإنسان في إيجازٍ يجمع ما تفرقَ في كثيرٍ من سوره وآياته الشريفة، ذلكَ أنَّ سورة العلق تحملُ في مضمونها العام تكليفًا إلهيًّا نحو ترسيخ الإيمان بالله جل جلاله، وتعزيز قيمِ العلمِ والمعرفة، والتحذيرَ من الطغيان.

(1) «التفسير البياني للقرآن الكريم» عائشة محمد علي عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ط/ 7، دار المعارف - القاهرة، (2/ 18).

حقيقة ذم الإنسان
في التّصور القرآني

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [سورة التين: 4-6].

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر: 1-3].

وَرَدَ في القرآنِ الكريم بحقِّ الإنسانِ أرقى الثَّناء وأدنى الذَّم. فالإنسان موجودٌ ذو قيمة، ويستحقُّ التَّكريم لذاته، ومن جهةٍ أخرى قد يجد القارئ أنَّ ثمةَ آياتٍ تتحدثُ عنِ الإنسانِ بالذَّمِّ وبصفاتٍ سلبيةٍ عديدة، فكيفَ يكونُ الجمعُ بينَ الكرامة والتفضيل الذي منحته الرؤية القرآنية للإنسان، وبينَ الآياتِ



القرآنية التي تحملُ في ظاهرها ذَمًّا للإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [سورة الإسراء: 11]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [سورة العلق: 6]، وقوله: ﴿ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: 17]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يس: 77]، وغيرها من الآيات؟!

من الصعب أن نستنتجَ فيما إذا كانَ الإنسان قد وُصِفَ في القرآنِ الكريم سلبيًّا أكثر مما وُصِفَ إيجابيًّا؛ لأنَّ المعتبر في التقويم ليس الجانب (الكَمِّي) فقط لورودِ الصفات السلبية والإيجابية بل هو الجانب (النوعي).

وبتعبيرٍ آخر: فإنَّ إحصاء الآيات الكريمة التي وصفت الإنسان قد يبين لنا أنَّ الإنسان قد وُصِفَ سلبيًّا أكثر مما وُصِفَ إيجابيًّا إلا أنَّ اعتبار الجانب (النوعي أو الكيفي) في الوصف الإيجابي للإنسان مثل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: 4]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [سورة البقرة: 30]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: 70]، يجعل من الصعب الاستنتاج أنَّ الإنسان قد وُصِفَ سلبيًّا أكثر مما وصِفَ إيجابيًّا.

إنَّ نفخةً من روحِ الله الأعلى سَرَتْ في أَوصَالِ الإنسان فجَعَلتْه كَائِنًا خَطِير الشَّأْن، وفي تكوينه الأوَّل إِشَارة إلى أنه يُولَدُ بالتَّوحِيد والاستقَامَة؛ ثمَّ تعدو عليه البيئة الرَّدِيئة، فإذا هو يميلُ ويعوج ويَنْسَى أَصله الرَّفيع[1]!

وآيتا الإنسان في (**سورتي التِّين والعَصر**) تؤكدان وتبينانِ الرؤية القرآنية في أصلِ المدح والكرامة الإنسانية، وبينَ الذَّم الذي وُصِفَ به الإنسان في بعضِ الآيات: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [سورة التين: 4-6]، وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر: 1-3]، والإنسان -هنا- بسببِ كفره وعصيانه قد ردَّه تعالى إلى أسفلِ سافلين، ووقعَ في الخسران.

وقد استثنى الله تعالى من هذا المآل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ويبدو أنَّ الإيمان والعمل الصالح هما أساس الاستثناء في جميع الأحوال التي وصَفَ الله تعالى فيها الإنسان بالصفاتِ السلبية.

(1) ينظر: «التفسير الموضوعي» محمد الغزالي، ط/ 4، دار الشروق، القاهرة، 1420هـ - 2000م، ص: 528.



وعليه؛ فإنَّ وصف الإنسان بالصفاتِ السلبية إنما ينطبقُ أساسًا على الإنسان المنحرف عن المنهجِ الإلهي، أمَّا أساسُ الخلق فقد كان في (أحسنِ تقويم) وفي (أحسن صورة)، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة التغابن: 3]، لذا، فالصفات السلبية «قد تكون كامنة تتحين فرصة للظهور، وقد تكون طارئة يمكن التغلب عليها بحسن التوجيه، وقد تكون غير شاملة، بيد أنها جميعًا يستطيع الإيمان بالله حيث ترعاه التنشئة السليمة، وتنمو به التربية الصحيحة أن يجعل من الفرد البشري (إنسانًا متكاملًا فاضلًا)»[1].

وعند تأمل بعض الآيات التي تصفُ الإنسان وصفًا سلبيًّا فإننا نلاحظ أنها تبدأ بفعل «خُلقَ» مبنيًّا للمجهول، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [سورة المعارج: 19]، وبعض الآيات تبدأ بفعلٍ ماضٍ ناقصٍ، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: 54]، بينما يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: 4-6]؛ فهو ينسبُ إليه عملية الخلق في أحسنِ تقويم، وإلى جانبِ هذه الآية هناك آية أخرى في سورة البلد: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [سورة البلد:

(1) «لمحات نفسية في القرآن الكريم» عبد الحميد محمد الهاشمي، مجلة دعوة الحق، 1989م، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، عدد: 11، ص: 90.

4][1]؛ والمقصود بهذه الآية -كما جاء في «تفسير الجلالين»- هو أنَّ الله تعالى قد خَلَقَ الإنسانَ ليكابد، أي: ليواجه مصائبَ الدنيا وشدائدها[2].

وهذا الوصف واقعي جدًّا؛ إذ إنَّ المطلوب من الإنسان في هذه الدنيا هو بَذلُ الجهد والسَّعي لاكتسابِ الرِّزق وتعمير الأرض؛ حيث هو مستخلَفٌ فيها.

والمتأمل لهذه الآيات -التي تتحدث عن الصفات السلبية للإنسان- يلاحظ أيضًا عدم وجود أَيَّةِ آيةٍ تبدأ بـ «خلق» أو «خلقنا» أو «كان» عندما يكون المقصود بالوصف سلوكًا معينًا مثل الظلم حيث لا نجد آية واحدة تقول: «ولقد خلقنا الإنسان ظَلومًا»؛ مما يعني أنَّ بعض الصفات والخصائص المرتبطة بالسلوك خصائص مكتسبة بمختلف أشكال وأنماط التعلم، كالتقليد.. وغير ذلك، وليست خصائص موروثة[3].

وقد ذهب العلامة ابن عاشور رحمه الله لتأويل آية الأمانة في سورة الأحزاب تأويلًا يتفقُ مع الرؤية القرآنية في تصورها

---

(1) ينظر: «الإنسان المتكامل في القرآن الكريم» مصطفى عشوي، محاضرة بالمؤتمر العالمي عن الإرشاد والعلاج النفسي من المنظور الإسلامي، تنظيم: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا كوالالمبور، ماليزيا: 15-17 يوليو 1997م.

(2) ينظر: «تفسير الجلالين» جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط/ 1، دار الحديث - القاهرة، (1/ 808).

(3) ينظر: «الإنسان المتكامل في القرآن الكريم» مصطفى عشوي.



للإنسان، ففي قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: 72]، أنَّ هذه جملة اعتراضية ومعناها استئناف بياني، ثم ينفي أن تكون هذه الجملة (تعليلية)؛ لأنَّ تحمُّل الأمانة لم يكن باختيارِ الإنسان، فكيفَ يُعلِّل بأنَّ حَمْلَه الأمانة من أجل ظُلْمِه وجهله، فمعنى: ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أنه قصَّر في الوفاء بحقِّ ما تحمله تقصيرًا، بعضُه عن عمْد -وهو المعبر عنه بوصفِ ظلومًا-، وبعضه عن تفريط في الأخذِ بأسبابِ الوفاء وهو المعبر عنه بكونه جهولًا، فظلوم مبالغة في الظُّلْم وكذلك جهول مبالغة في الجهل(1).

ويتَّضِحُ مما سَبَق، أنَّ عبارات الذَّم التي ذكرها القرآن الكريم، تبين أنَّ التكريم الإلهي للإنسان؛ إنما هو لأجلِ المسئولية والدور الذي يقومُ به الإنسان تجاه حقيقة الوجود، فإذا عَرَفَ الإنسان أهمية هذا التكريم الإلهي، واستعملَ النِّعم الإلهية بشكلٍ صحيح، عند ذلك يستحقُّ المدح والثناء، وإلا فهو يستحقُ الذَّم.

والحقيقة أنَّ الذَّم والمدح في القرآنِ الكريم يوضحانِ امتلاك الإنسان القدرة على الارتقاء بنفسه وحمايتها من الانحدارِ والسُفول والخسران، مما يجعله مستحقًّا لذلك المدح، أو الوقوع في مستنقع الرذيلة الذي يطمس معالم التكريم وجمال الخلقة، وصفاء الفطرة، وسلامتها مما يجعله مستحقًا للذم.

---

(1) «التحرير والتنوير» (22 / 129).

حقيقة الاصطفاء!

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: 247].

لقد اختارَ الله عَبْدَه «طالوت» ليكونَ مَلِكًا، وجاءَ هذا الاصطفاء بناءً على القُدراتِ الفردية التي يحملها، وهي القُدُرات الحقيقية المُكتَسَبَة التي يُقاسُ من خلالها معادنُ الرِّجالِ والقَادة، ومدى قدرتهم على قيادةِ ما وُكِلَ بهم من وظائفَ ومهام وأعمال!

لكنَّ قومًا منهم انتفضوا على هذا الاختيارِ والاصطفاءِ؛ لأنهم نظروا إليه من كُوَّةٍ ضَيِّقَة؛ لا ترى استحقاقًا للمُلْكِ أو للنُّبُوَّةِ أو للسِّيَادَة إلا لأصحابِ الأموالِ والجاه، وليتهم إذ نَظَروا وقعت



أنظارهم على ما في الإنسان من فضائل نَفْسِيَّةٍ وروحيَّة، هي التي يكونُ بها التَفَاضُل والتَمَايُز بَينَ إنسانٍ وإِنسان.. ولكنَّهم لم ينظروا إلا إلى ما أُشْرِبَتْه قلوبهم من حُبِّ المال، الذي هو مِيزانُ المفاضلةِ والفَضْلِ عندهم، وقد فُتِنُوا بهذا الفَهْمِ الأعوجِ في تَقييمِ الرِّجَال.. فَرَدَّ الله عليهم ما اعترضوا به، وأبَانَ لهم حقيقةَ الاختيار، وسَبَبَ الاصطفاء؛ ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾.

إذن، لا قيمةَ لما تفوهُوا به، ولا قِيْمَةَ للمَالِ الذي جعلوه مَنَاطَ المُلْكِ واستحقاقِ الحكْمِ والسِّيَادَة.. إنَّ للقرآنِ منظورًا آخرَ، ورؤيةً مختلفةً في نظرته لمن يَسْتَحِقُّ الملكَ والحكمَ والنُّبُوَّة.. تَتبَايَنُ مع فَهْمِ الآخرين ذي البُعْدِ الواحد، ونظرتهمُ المادية التي تَنْطَلِقُ في حُكْمِهَا من «الكَم» مُغْفِلةً حقيقةَ «الكَيْف»!

وُصِفَ طَالوت في هذا النَّصِّ القرآني بصفةِ العِلم، وقُوَّة الجسم، أي بـ«المعرفةِ والقُوَّة».. ولو تأمَّلنا لوجَدنا أنَّ لفظ ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ يذكرنا بما وَرَدَ في سورةِ طه؛ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا﴾ [سورة طه: 114] أمَرَ الله نبيه بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ في العلم، ولم يأمره بِطَلَبِ الازديادِ من شيء إلا من العلم! وهنا امتنَّ الله على طالوت بزيادةٍ في العلمِ والجسم، فكانَ خَلِيقًا به أن يَكونَ مَلِكًا!

وإنَّ ما اعترَضَ به «قوم طالوت» على قَرَارِ الإله المتَّصِفِ بـ (العَدْل)، حينَ اختَارَ طالوت مَلِكًا، مع أنه لم يُؤْتَ سَعَةً منَ

المال.. كَرَّرَتْه قُريش، وقالتْ ما تَفَوَّه به من سَبَقهم؛ حينما رَفَعَتْ لِوَاءَ الكِبْرِ والحربِ ضِدَّ دَعوَةِ الإسلامِ الأولى.. فقالوا بكلِّ جهلٍ وصَلَف: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزخرف: 31]، كيفَ يُؤتى النُّبُوَّة والقُرْآنَ فَقِيرٌ لا مَالَ له، ويَتيمٌ لا رُكْنَ له، ولا يُعطاها العُظَماء وأرباب الأموال، وأصحاب الجاه والمكانةِ والسِّيَادَة!

لقد أَعْمَتْهُمُ الجاهليَّة بكَثِيفِ ظلامِها... ونظروا للنُّبُوَّةِ والاصطفاء من خِلالِ العَظَمَةِ التي يتصورونها: «سعة في المال، وبَسْطَة في الجاه، وسِيَادَة قائمة على الاستبدادِ والاستعباد»، وغفلوا عن حقيقةِ الاختيار، ونظرة القرآن لمعَادِنِ الرِّجَال، وطبيعة الاصطفاء القائمةِ على التَّفضيلِ بناءً على التفاوت بَينَ الأفرادِ في مختلفِ جَوانِبِ التفاوت المكتَسَبِ والموروث؛ كالرِّزقِ والعلم والجمال والذَّكاء والقُوَّة وغيرها..! وتلكَ النَّظْرَة القاصرة، والتَّصور العقيم، الذي آلَ بهم للخُسران والبوار، تأبى الانفكاك عمَّن يَرونَ «سعة المال»؛ ميزان الاختيارِ والاصطفاء!

بل، وانسحبَ هذا التفكيرُ إلى عتابِ الأنبياءِ والمرسلين عليهم السلام من بعضِ أقوامهم، كما حكى الله عن قوم نوح قولهم له: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [سورة الشعراء: 111]؛ لأنَّ من آمَنَ بحقيقةِ النُّبُوَّة، وعَبَّ من نورها، هم من الضُّعفاءِ والمساكين، من لا مَالَ لهم ولا جاه..



فأنصفَ الله أَتْبَاعَ النُّبُوَّة، وطُلَّابَ الحقيقة، فَقَالَ لنبيه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف: 28]، تَمَسَّك بهم، فإنهم العُظَمَاء دونَ سواهم!

وإنَّ صَفَةَ العلم والجسم «القُوَّة» التي مُنِحَهَا طالوت، واستَحَقَّ بسببها أن يكونَ مَلِكًا، هي الصفات ذاتها التي وُصِفَ بها نَبيُّ الله موسى عليه السلام.. فقد جَاءَ في سورة القَصَص: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [26]، فَقُوَّةُ موسى؛ يعادلها بَسْطَة الجسم التي أوتيها طالوت، وأمانة موسى، نابعة من نورِ العلمِ الذي يحمله، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وينبغي أن يُعْرَف الأصلح في كلِّ منصب؛ فإنَّ الولاية لها ركنان: القوَّة والأمانة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾»[1].

وبناءً على ذلك: فمنَ الممكنِ أن نقول: إنَّ القرآنَ الكَرِيم حَدَّدَ صِفَاتَ القَائِد، وجَعَلَهَا في «العِلْمِ والقُوَّةِ، وما تَفَرَّعَ عنهما»، وهي صِفَاتٌ مكتملة، لا تتحَقَّقُ في كثيرٍ من النَّاس، إلا من رُزِقَ التَّوفيقَ والسَّدَاد، وذلكَ فَضْلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم!

---

(1) «مجموع الفتاوى» أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز - عامر الجزار، ط3، دار الوفاء، 1426 هـ/ 2005 م، (28/ 253).

الرّوح بينَ القرآنِ والإنسان

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29].

في البَيَانِ القرآني الخالد، يقولُ الله تعالى للإجابةِ عن ماهيَّةِ (الرُّوح): ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [سورة الإسراء: 85]!

وفي حديثه عن القُرآن، قَال الله تَعَالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: 52].

وفي حَديثِ القرآنِ عن الإنسان، قَال الله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29].

فما العلاقة ووجْهُ الارتباطِ بينَ الرُّوح في القرآنِ والإنسان؟!

عندَ النَّظَرِ في الآياتِ، يُمكنُ أن نلاحِظ ما يأتي:

- الرُّوح تُمثِّلُ جَانبَ الحياة والحركة في الإنسان، وجاءَ القرآنُ



بَاعثًا للنُّفُوس، ومُغَيِّرًا للأفكارِ البَالية، وسَبيلًا للحَرَكَةِ الفَاعِلة في الحياة.

- هناكَ ارتَبَاطٌ رُوحيٌّ خَفِي بينَ رُوحَيْنِ من عندِ الله تعالى، وهُنَاكَ علاقة واضحة بين روحي الإنسان والقرآن، عندَ النَّظَر والتَأمُّل في كلمةِ الرُّوح، من جهةِ أنَّ القُرْآنَ والإنسان كليْهِمَا لا يُمكنُ أن يُدرَكَ سِرُّهُما.
- الإنسان بلا روح، جثة، كتلة مُعَطَّلة من كلِّ فائدة، والقرآنُ روح، والتَّعَاملُ معه يَكونُ بتَقمُّصِ هذه الرُّوح، لا بمجردِ القراءةِ (السَّاكِنة) التي لا تَبعَثُ على الحرَكةِ والتَّغْيِير. ولا تَعُودُ بفائدةٍ تُذْكَرُ على الإنسان.
- إنَّ النَّفْخَةَ الإلهية في الإنسان أَكْسَبَتْه قيمة علوية، يجدها ويُعزِّزُها برُوحِ الكتاب المنزَل؛ فيحصلُ التَّلاقي بَينَ روح الإنسان والقرآن، فتجدُ ثَمرَةَ ذلكَ في قولِهم عنِ النَّبيِّ ﷺ: «كانَ قرآنًا يمشي على الأرض»؛ لالتِقَاءِ الرُّوحَيْن!

وفي حالَ التَّخَلِّي عن الرُّوح، والسَيْرِ في طَريقِ الجَسَد (المادة)، والبُعْد عن روحِ القرآن، تُصبحُ النَّتيجة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: 5]؛ لتَخَلِّيه عن سَبَبِ العُلُو؛ المتَمَثِّل بروحِ القرآن التي تبعثُ فيه الحياة ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [سورة الأنعام: 122].. وروحه التي تبقيه على قيدِ الحياة، الحياة القائمة على أسَاسِ المنهجِ الإلهي الخالد!

- ولَمَّا كانَ القرآن رُوحًا، وتَلَقَّاه الإنسان، كانت الواسطة بينهما (روحًا)، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [سورة الشعراء: 193-194].

فاستَحَقَّ جبريل عليه السلام أن يُسَمَّى بالرُّوح؛ لَشَرَفِ إِنْزَالِه الرُّوح الخالدِ القَادمِ مِنَ السَّماء، على روحِ الإنسانِ القَائِم في الأَرْض!

وصفوةُ القول:

أنَّ الأرواح التي تظل ذِكْرَاها في الأَحياءِ بَعدَ رحيلها، كأنَّها تَعيشُ بينهم؛ هي رُوحٌ تَلبَّسَتْ بِرُوحِ القُرآن، فاستحقَّتِ الخلودَ والبَقَاء، ولهذا، تبقى أرواحهم مُلْهِمَة، وباعثة على الحياةِ والحَرَكة، لمجرَّدِ ذكرها، ولأنَّ صاحبها يحملُ سِرًّا بينه وبينَ مَنْ وَهَبَه الرُّوح!



طوفان التّغيير

قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [سورة هود: 43].

في تلكَ اللحظةِ الفارقةِ من عُمْرِ البشريةِ قرَّرَ ابن نوح عليه السلام الفرارَ من أمرِ الله إلى جَبَلٍ يحولُ بينه وبين القَدَرِ المحتومِ، وظنَّ أنَّ الإيواء إلى الجبل سببٌ للارتقاءِ والنجاةِ والبقاء، وغَابَ عنه أن لا عاصمَ من أمرِ الله إلا أمرُ الله! وما عَلِمَ أنَّ كل شيءٍ في تلكَ اللحظة سُخِّر لنجاةِ الثلةِ القليلةِ التي ما تلوَّثَت فطرتها، وقبلتْ أن تنجو واختارتْ طريقَ السَّلام، وقالت: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [سورة هود: 41]!

البعيدونَ عن الله وطريقه يعتقدونَ أنهم بذكائهم ودهائهم

وسطوتهم يستطيعونَ التخلُّص من طوفانِ الغَرَقِ المحتوم، بصعودِ جبلٍ أو نحوه، وهذا من الخذلان وقِلَّةِ التوفيقِ!!

كانَ نوح عليه السلام يُدْرِكُ أنَّ كل شيءٍ في الأرض من شجرٍ أو حجرٍ أو ترابٍ أو بحرٍ أو جبل، جميع ما في الأرض أذعنَ واستسلم «لطوفانِ التغيير» لنجاةِ قلة قليلة عزيزةٍ على الله، ولهذا قالَ لابنه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة هود: 43] لن يَقِفَ أحدٌ معكَ اليوم، ولن تجد من تحتمي به، فلحظة الفرقان «الفارقة» إذا جاءت ونزلت لنصرةِ المؤمنين لا يقفُ في وجهها شيء من أسبابِ الدنيا أيًّا كان قوته، أو من طغاتها أيًّا كانت سطوته!

لقد بَرَّحَ به الحزن، واشتدَّ عليه الألم بعد أن هَلَكَ هذا الابن المخذول، وكانَ من المغرقين الذينَ استبدَّ بهمُ الهوى والانحدار.. تركوا بقعةَ النُّور، فأخذهم ظلامُ الطُّوفَان؛ فجعلَ نوح يندبُ ابنه ويبكيه بألمٍ ملتهب، وحزنٍ ممضٍّ، ويطلبُ منَ الله العَزَاء والسُّلوان، لقد دارت السفينة دورتَها، وبلغت المدى المقدور لها، وأَذِنَ الله سبحانه وتعالى لها أن تستقرَّ على اليابسة، وقُضِيَ الأمْر..



الحاملونَ لهمِّ الفكرة

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة القصص: 15].

في هذه الآياتِ من قصَّةِ موسى عليه السلام في سورةِ القَصَص، نلمحُ أمرًا مهمًّا للغاية؛ وهو أنه ليسَ كل من كانَ من شيعتكَ يحملُ هَمَّ الفكرةِ التي تدعو إليها، والرِّسَالة التي بَينَ يَديك، ويُؤمنُ بالقِيَمِ التي جئتَ بها..

فهذا واحدٌ من شيعةِ موسى عليه السلام، يستغيثُ به، فينتصرُ له النبيُّ الكريم، ثمَّ لمْ تمضِ بضعة أيامٍ بعدَ تلكَ الحادثة، وإذا به يتنكَّرُ للنبيِّ موسى.. ويصفه بأوصافٍ قريبة مما يصفه بها فرعون الطاغية..

سجَّلَ الله تلكَ اللحظات، وذلكَ الموقف الذي انكشفت فيه حقيقة التَّابع المشَايع، الذي لم يؤمن بالمبادئ التي يدعو إليها موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [سورة القصص: 19].

في هذه الآيات.. يصِفُ النَّبيَّ موسى عليه السلام أحدُ شيعته[1] -على أصَحِّ الأقوال- بأنه:

- يسعى للقتل.
- و يريدُ أن يكونَ جَبَّارًا في الأرض.
- ونَزَعَ منه صفة الصَّلاح والإصلاح.

وجميعها تُهَمٌ خطيرة لا ينبغي أن يتَّصِفَ بها أحدٌ من المصلحين، بَلْهَ أن يكونَ نَبيًّا من أُولي العَزْم!.. قالها الرَّجلُ لموسى لمجرد أنه

(1) وهذا القولُ تؤكده الرواية التوراتية، فقد صرَّحَت أنَّ القائلَ لموسى هو الرجلُ العبراني الذي استغاثَ به، فقد وَرَدَ في [سِفْر الخروج]، ما يأتي:
«وَحَدَثَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ لَمَّا كَبِرَ مُوسَى أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى إِخْوَتِهِ لِيَنْظُرَ فِي أَثْقَالِهِمْ، فَرَأَى رَجُلاً مِصْرِيًّا يَضْرِبُ رَجُلاً عِبْرَانِيًّا مِنْ إِخْوَتِهِ، [12] فَالْتَفَتَ إِلَى هُنَا وَهُنَاكَ وَرَأَى أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ، فَقَتَلَ الْمِصْرِيَّ وَطَمَرَهُ فِي الرَّمْلِ. [13] ثُمَّ خَرَجَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَإِذَا رَجُلاَنِ عِبْرَانِيَّانِ يَتَخَاصَمَانِ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: «لِمَاذَا تَضْرِبُ صَاحِبَكَ؟» [14] فَقَالَ: «مَنْ جَعَلَكَ رَئِيسًا وَقَاضِيًا عَلَيْنَا؟ أَمُفْتَكِرٌ أَنْتَ بِقَتْلِي كَمَا قَتَلْتَ الْمِصْرِيَّ؟». فَخَافَ مُوسَى وَقَالَ: «حَقًّا قَدْ عُرِفَ الأَمْرُ». [15] فَسَمِعَ فِرْعَوْنُ هذَا الأَمْرَ، فَطَلَبَ أَنْ يَقْتُلَ مُوسَى. فَهَرَبَ مُوسَى مِنْ وَجْهِ فِرْعَوْنَ وَسَكَنَ فِي أَرْضِ مِدْيَانَ، وَجَلَسَ عِنْدَ الْبِئْرِ». [سفر الخروج، الإصحاح الثاني، 11-15].



لم ينتصر له.. بمعنى أنه لم يجد فائدة محسوسة من موسى عليه السلام كما استفادَ منه في المرَّةِ السَّابقة التي أغاثه فيها..

لكنَّ الفكرةَ لا تقفُ عندَ هذا الحد.. فتأتي الآياتُ التي تليها مباشرة بعدَ الحوار الذي دَارَ بينَ النبيِّ موسى عليه السلام وأحدِ شيعته: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [سورة القصص: 20].

هذه الآية أتت لتضَعَ النِّقاطَ على الحروف.. ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ..﴾ نكرة، لا يُعرَف من هو، ومن يكون؟ بمعنى أنه ليسَ من شيعة موسى عليه السلام الذين قضى شَطْرًا من عمره يُنافحُ عنهم، وعن قضيتهم، وانتزاعِ حقوقهم وكرامتهم..

أرادَ الله أن يبيِّن لنا الفرقَ بينَ الرجل الذي من شيعةِ موسى، والرجل الغريب البعيد الذي جاءَ من أقصى المدينةِ ناصحًا لموسى عليه السلام بالرحيل.. الفرق بينهما: أنَّ الرَّجلَ الغريب آمَنَ بفكرةِ موسى، تشرَّبَها قلبه، وآمَنَ بها فؤاده، يحملُ همَّ الرسالة التي يدعو إليها النبي الكريم، وهذا ما دعاه للخروجِ من أقصى المدينة نُصحًا ومحبةً للنَّبي الذي يُرادُ له ولدعوته الهلاك.

وفي هذه الآياتِ دلالة جليَّة، مفادها:

أنَّ من شايعكَ في لحظةٍ ما، أو كانَ هو من شيعتكَ أصلًا، ولم يحمل الهمَّ الذي تدعو إليه، والفكرة التي تستميتُ من أجلها،

فلا خيرَ يُرجى منه.. وليسَ أهلًا أن يكونَ من أهلِ الدعواتِ والثَّبَات..

وتطبيقاتُ الآياتِ الكريمةِ واضحة في ما حَدَثَ لسيِّدِ الخلق ﷺ، من إيذاءٍ ومحاربةٍ واتهام من بني قومه وشيعته.. بينما نَصَرَه الله برجالٍ صادقينَ أتوا من أقصى المدن، كالفارسيِّ والروميِّ والحبشي... يُشيعونَ مَوكبَ النُّور؛ لَيَعُمَّ البشريةِ الغارقة في دياجيرِ الظَّلامِ والظُّلْم.



التغيير الفردي
وأثره في حمايةِ الكيانِ المسلم!

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [سورة القصص: 20].

في سورةِ القَصَص كانَ القومُ قد اجتمعوا على قَتْلِ موسى ﷺ؛ ولهذا كانَ حديثُ «الرَّجُلِ» مُقْتَضَبًا في غايةِ الإيجابية، وَضَعَ بينَ يدي موسى حَلَّ الخروج العاجل، والهجرة فِرَارًا بدينه من بَطْشِ الطُّغيانِ الفرعوني الذي يظهر أنَّ «الرَّجُلَ» كانَ مُوقِنًا بما يُضْمَرُ لموسى؛ ولهذا قالَ له: ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [سورة القصص: 20]؛ والناصحُ لا يغشُّ مَنْ يُريدُ به الخيرَ، لقد علمتُ الشرَّ فيهم، وقد أزمعوا على قَتْلِكَ واجتثاث الدعوةِ التي تحمِلُها، إنهم يُريدونَ التخلُّصَ مِنْكَ؛ ليبقى الطُّغيان ممتدًّا، بعيدًا عن الأيدي التي تحفُرُ في الجدار، فاخرج.

بينما في سورةِ يس قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة يس:20]، فالسياقُ هنا لا يتحدَّثُ عن اجتماعِ الأعداء على قَتْلِ «الرُّسُل» كما في سورةِ القَصَص؛ وإنما مجرد تهديد في سياقِ الحوارِ والمجادلة: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة يس: 18]؛ ولهذا وَجَدَ «الرجلُ» الناصحُ مساحةً للحوارِ معهم؛ خوفًا عليهم من تكذيبِ الرُّسُل وإيذائهم، لعلَّهم يعودونَ إلى دعوتهم، دعوة الحقِّ والسَّلام.

كما أنَّا لا نجِدُه هنا ينصحُ «الرُّسُلَ» بالهجرةِ والخروجِ من الأرضِ التي يُقِيمونَ فيها ما دامت الدَّعوةُ لم يصل إليها قرارُ الاستئصالِ والاجتثاث، وكأنَّه فَهِمَ من تهديدِ القوم للرُّسُلِ مجرد التخويف والترهيب؛ للكَفِّ عنِ الدَّعوةِ إلى التوحيدِ التي تُزعِجُ مَنْ تلَوَّثَ بِداءِ الجاهلية، وانغمسَ في ظُلُماتِ الشِّركِ والوثنيَّةِ، وظَلَّ يَرزَحُ تحتَ العبُوديةِ الممتدَّة!!

كانت فكرةُ الرجلينِ واحدةً؛ حماية «**جنابِ الدعوة، وحماية الكِيان المسلم**»؛ لكنَّ الخطابَ اختلفَ بينهما بحسبِ تطلُّب الحالِ والوقائع، وهذا ما نجده تطبيقًا في سيرةِ النَّبيِّ ﷺ، عندما نَزَلَ حُكْمُ الاستئصالِ بأصحابه للتنكيلِ بهم، واجتثاث شأفَتِهم، أمرَ أصحابَه بـ «الخروجِ والهجرة»، وكانَ «الأمرُ» هنا شبيهًا بقرارِ صاحبِ موسى الذي قدَّرَ الوَضْعَ جيدًا، وانطلق بقرارٍ حكيمٍ؛



لإنقاذِ الدعوةِ وأصحابها من الهلاك والتلاشي؛ فأمَرَ موسى بالهجرة والخروج.

أما النبي ﷺ فبَقِيَ في مكانه في مَكَّة، وفي اللحظةِ التي مَكَرَ فيها المشركونَ، وقَرَّرُوا إسكاتَ صوت النُّبُوَّة، باتفاقهم على قَتْلِ صَاحبها، أمَرَ الله نَبِيَّه بـ «الخروجِ والهجرة»؛ حفاظًا على مكتسباتِ الدَّعْوَة، والبناء في مكانٍ آخَرَ؛ استمرارًا وامتدادًا للجهدِ المبذول.

وهنا يتَّضِحُ أنَّ كلا الأمرينِ مَرَّا بالنبي ﷺ؛ ولهذا فقد كان التغييرُ الذي قَامَ به هؤلاء الأفراد يستحِقُّ الإشادةَ والتنويهَ من الله، فجُعِلَ «سَعْيُهُم» قُرآنًا يُتلى إلى يومِ الدِّين؛ لأنها دَعَوَات «فَرديَّة» تغيِيرية حَاولت إِنقاذ كيان الجماعةِ المسلمة، وَحَمَتْها من الاجتثاث، وتَعَرَّضَ أصحابُها للإيذاءِ من أَجلِ بَقَاءِ دعوة الله.

وستبقىٰ قصةُ الرَّجُلَين تُتْلىٰ إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها، لا يُعرَفُ مَنْ هما، لكنهما أسْهَما في التغيير، وخاضا معركة الوعي، وتركا أثرًا في مسير دعوة الأنبياء، كان كُلٌّ منهما أُمَّةً في «رجل»، ففي اللحظةِ التي قررا فيها الخروج لإنقاذِ «أمر السماء»، لم يُفكِّرا في أمر نفسيْهما، لم يكن الهَمُّ حينها إلا بقاء ضوء النبوة؛ خشيةً عليه من الانطفاء، ونصرة الحقِّ المتمثِّلِ في الرسل، ومن أجلِ ذلك كافأهما اللهُ، وخلَّدَ ذِكْرَهما؛ ليكونا نِبْرَاسًا لمن أتى بعدهما يُكمِلُ البناء، ويحمي الدعوة، وينشدُ التغيير بفرديةٍ خالصة، لا تبتغي إلا اللهَ دونَ سواه.

أثر الفرد
في هدمِ كيانِ المجتمع!

تكلمتُ في الموضوعِ السَّابقِ عن «التَّغييرِ الفردي وأثره في حمايةِ الكيانِ المسلم»، ومثَّلتُ على ذلكَ بـ «الرَّجُلِ المؤمن» الذي خلَّدَ الله ذكره في سورةِ القصص، وبالمصلحِ الآخر القادمِ من أقصى المدينة، المُخلَّد ذكره في سورةِ يسٓ.

وهنا أذكرُ الأثرَ الذي يحدثه الفَرد في عمليةِ الهدمِ للمجتمع وزواله، وهو أثرٌ سلبيٌّ يُوقفُ عجلةَ الحياة، ويُسرعُ في عمليةِ السُّقوط والتَّلاشي!

في سورةِ «الأعراف» ذَكَرَ الله تعالى قِصَّةَ الرَّجُلِ الذي أوتيَ الآياتِ والبيناتِ والعلم، فانسلخَ من كلِّ ذلك، وأخْلَدَ إلى الأرضِ متشبثًا بها، واتَّبعَ «هواه» في الانجرارِ وراءَ الانحرافِ والشهوات التي باعَ دينه من أجلها. والإغراق في إيثارِ الدنيا



ولذاتها على الآخرةِ ونعيمها. ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [سورة الأعراف: 175].

هذا الرَّجُل، وقَفَ أمام دعوةِ موسى ﷺ، بأن دعا عليه، ووقفَ معَ الطغيان، وأسْهَمَ في إطفاءِ نورِ النُّبُوة بتكذيبها، وإسقاطِ «صاحب الرسالةِ» نبيِّ الله موسى ﷺ.

ومما لا شَكَّ فيه، أنَّ الأثرَ السلبي الذي تركَه هذا «الرَّجُلُ العَالِمِ»، بعد انسلاخه من نورِ الهدى والعلمِ والبينات، كانَ سَبَبًا في إمعانِ القومِ في الصَدِّ عنِ الدَّعوة، والتمترس خلفَ البَاطِلِ؛ مِمَّا أوقعهم في الخسران، وأورثهم العذاب في الدَّارَين!

وقل مثلَ ذلك، عن «الرَّجُلِ الشَّقِي»، الذي قَصَّ الله خبره في أكثر من موضعٍ في القرآن الكريم.. الرَّجُلُ الذي قَتَلَ «ناقة» نبي الله صالح ﷺ، وتَسَبَّبَ في إهلاكِ قومه!

قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: 12]، وفي سورة القمر: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [سورة القمر: 29]، فكان هذا الشقيُّ سببًا لتحقُّقِ العذاب، وإحلالِ الغضبِ الإلهي، وكانَ إقدامه لعقر ناقةِ الله التي جعلها لهم آيةً عظيمة، هلاكًا لقومه، وموتًا لذكرهم، وبلاءً عليهم، وكذلكَ يفعلُ الشرُّ بأهله.

وفي سورة العلق نوَّه الله بشقيٍّ آخر، الطاغية الذي استغنىٰ، وكذَّبَ وتولىٰ، ماضيًا على غلوائه، سادرًا في الضلالِ والانحراف.. متكئًا على ناديه، وقومه وعشيرته!

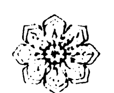
وقَفَ «أبو جهل» في وجه الدعوةِ المحمديةِ منذُ اليومِ الأول، كانَ «الفردَ المؤثر» الذي أخَّرَ نورَ النبوةِ من الانتشارِ في بطحاءِ مكَّة.. لقد جيَّشَ قريش على الدعوة، وحاولَ كما حاولَ من سبقه إطفاءَ نورِ النبوة.. وتمادى في الظلمِ والطغيان.. واستنفرَ كل طاقته الفردية والقيادية في بناءِ الجدرانِ حولَ دعوةِ محمدٍ للصدِّ عنها.. إلى أن قادَ قومه صرعى في قليبِ بدر، غيرَ مأسوفٍ عليهم!

هذه نماذجُ في «أثرِ الفردِ في هدمِ كيانِ المجتمع»، يقابلها نماذج أفرادٍ كانوا سببًا في حمايةِ كيانِ المجتمعِ المسلم، والتقدم به.. خلَّدَ الله ذكرهم، ووضعَ النهايةَ التي آلَ إليها «أثرُ التغيير الفردي» ماثلةً بينَ أعيينا..

أرادَ الله أن يقولَ لنا في القرآن:

بإمكانكَ أن تكونَ الرجل الذي نصحَ موسى عليه السلام وحمى الدعوة من الوأد، وبإمكانكَ أن تكونَ أبا جهل..

بإمكانكَ أيضًا أن تكونَ معولًا للبناءِ وآخرَ للهدم.. كنْ صاحب أثر جميل، تقودُ المجتمع لدروبِ النهضةِ والتقدمِ والنجاة..

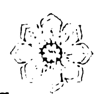


كنْ (أمَّةً) في (رجل)، وإياكَ إياكَ من داءِ الطغيان والاستغناء، والانسلاخ عن طريقِ الحق، طريقِ الله ربِّ العالمين.

الانبهار الغالب

قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة القصص: 79].

إنَّ قطيعَ المنبهرينَ بما أوتيَ قارون، وُصِفوا في النصِّ القرآني؛ بإرادتهم لـ «الحياةِ الدنيا»، وهنا.. ثمة فرقٌ ظاهرٌ بينَ إرادةِ «الدنيا» كأمرٍ إلهي لتعميرها، وإصلاحها، وبنائها، وغرسِ فسائلِ النهضة والحياة فيها، وبينَ إرادة حياةٍ بعينها؛ بنمطٍ معين؛ كما تمنى القوم المندهشونَ ببريقِ المال، وزهو الغني المختال، وشهرته التي لا حدَّ لها! أو حياةٍ عامة، أيَّ حياةٍ كانت.. المهم، حبُّ البقاءِ والخلود، والنفور من فكرةِ الرحيلِ والانتقالِ إلى الدارِ الآخرة.. كما وُصِفَ اليهودُ بذلك: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [سورة البقرة: 96].



ثمَّ أوضحَ الله قِصَرَ النظرِ لديهم، لقد تصوروا بدافعِ الدهشة والانبهار، أنَّ قارون صاحبُ «حظٍّ عظيم» بسببِ الأموالِ الطائلةِ التي يملكها! وهي نظرة أحادية، لا ترى إلا ضخامةَ المادةِ وأربابها.

وفي الآية التي تليها، ذَكَرَ الله تصور فريقٍ آخر، ونظرة مغايرة للنظرةِ الأولى، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [سورة القصص: 80].

وهذه نظرة تخلَّصَت من سَطْوةِ **الانبهارِ الغالب**.. ولهذا، لم يندهش أصحابها، ولم يتمنوا ما عِنْدَ قارون، لزواله، وطلبوا النَّعِيمَ الباقي والمتاعَ الخالد..

ولم تَتَشكَّل لديهم هذه القناعات، وهذا المنظور العميق للحياة؛ إلا بسببِ «العلم» الذي أسْهَمَ في تعميقِ النظرِ لحقائقِ الأشياء، واستشرافِ الواقع، وتمحيصِ الظواهر، والابتعاد عن ثقافةِ القطيع، وكبحِ جماحِ النَّفْس في الانسياقِ وراءَ التَمَنِّيَاتِ القاصرة.. ومن أجلِ ذلك، ذكَّروا قومهم الغارقينَ في فتنةِ الغنى القاروني؛ بثوابِ الله العظيم الذي لا حَدَّ له، والإيمان بالمُعْطِي الذي بيده ملكوت كلِّ شيء، وعمل الصالحاتِ التي تُقَرِّبُ العَبْدَ إلى الحقيقةِ العظمى في الوجود.. والتحلي بالصبرِ على فتنةِ المالِ والمنصبِ والغنى والغرور!

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [سورة القصص: 81].. تَلاشى

الطُّغيان، وهوى العمران، وتلاشت النظرات التي تَمَنَّت أن تَكونَ في مقامِ المخسوفِ به، وتحولت الدهشة، واستحالَ الانبهار إلى رماد، ورأوا عَيْنَ اليقين نهاية الانحراف، والتَنكُّر للإله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [سورة القصص: 78].. لقد أدركوا - مؤخرًا - قيمةَ «العلم» الذي يَعصِمُ صاحبه من الشَطَطِ والزَّلَلِ والغلو والانبهار، والابتعادِ عن الحقائق.. وكلُّ علمٍ لا يُورثُ صاحبَه ذلك؛ فهو ناقص!

ثمَّ أكَّدَ الله حقيقةَ المآلِ الأخروي بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [سورة القصص: 83].. للذينَ لا يُريدونَ حياة؛ الغرضُ منها البقاء.. دونَ النَّظر إلى طبيعتها.. ولو كانت فسادًا وطغيانًا أو علوًا في الأرض.. وبمفهومِ المخالفة؛ فالدارُ الآخرة نجعلها لمن يُريدونَ الدُّنْيَا لإصلاحها وإعمارها ونهضتها، وإقامةِ دعَائمِ العَدْلِ والحقِّ فيها، والارتفاع عنِ الفساد بشتى صوره، والنظر إلى الدنيا بمنظور من يسير ليصل، لا من همُّه أن يسير دونَ رؤيةٍ واضحةٍ للوصول..!



سيلُ العَرِمِ المتجدِّد!

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سورة سبأ: 15].

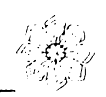
إنَّ تناولَ القَصَص في القرآنِ الكريم له أشكالٌ عِدَّة، وأنماطٌ مختلفة، وأساليبُ متنوعة، فكلُّ قصةٍ تُسَاقُ بحسبِ سياقها، وفرائدِ العِبَرِ والدروسِ التي يُرَادُ منها. وهنا نجدُ أنَّ قصةَ «سَبَأ» أخذت شَكلًا مختزلًا مكثَّفًا؛ لتكونَ «عبرةً» على مَدى الأيام.

تَعَرَّضَ القرآنُ لهذه القِصَّةِ بذكْرِ «الحال» التي كانَ عليها القوم، ثمَّ ذَكَرَ «الدَّاءَ» الذي أصَابَهم، وتَنكُّرَهم لمقَامِ الإله، ثمَّ صوَّرَ القرآنُ الكريم أغربَ أمنيةٍ تمنَّاها المجتمع المدَلَّلِ بالنِّعمِ والخيراتِ والفضل..!

أمَّا الحال التي كانَ عليها القوم.. فعلامةٌ ظاهرة على الإنعامِ الإلهي لقومِ سبأ، من خلالِ القوةِ الاقتصاديةِ الكبرى، التي أورثَتْهُم وفْرَةً في الرِّزقِ والأمن والعَيشِ الرَّغيد.. فاستحقَّت أن تُسمَّى دونَ غيرها بالبلدةِ الطيبة، ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ [سورة سبأ: 15].. وطيبةٌ هنا؛ ليست بحاجةٍ إلى تفسيرٍ وبَيَان! فهي تختزلُ كل ما يستطيبُه الإنسان للبقاءِ وتحقيقِ مبدأ الاستخلاف: أرضٌ طيبة، كريمةُ التربة، حَسَنَة الهواء، وفيرة الرِّزق، عالية الشَأنِ والذِّكْرِ والخَبَر!

وأمَّا الداء الذي أصابهم؛ وقد أصَابَ الأُمَمَ من قبلهم، فهو داءُ «الإِعراض»، الذي ما حَلَّ بقومٍ إلا أورثَهَمُ الهلاكُ والثبور..! ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ [سورة سبأ: 16]... والإعرَاضُ هنا شَامِل.. ولم يذكر النص القرآني طبيعةَ الإعراض، كما ذَكَرَ ذلكَ في الأمَمِ السابقةِ من خلالِ بيانِ سَببِ هلاكهم، ولهذا، فبالإمكانِ معرفة طبيعة الإعراض من خلالِ سياقِ الآيات.. فقدَ قيلَ لهم: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ [سورة سبأ: 15]، فأعرضوا عن حقيقةِ شُكْرِ الإله، وكَفَرَوا بها، وتجاوزوا الحَدَّ؛ فتلبَّسوا بـ «الطُغْيَان»، وكَفَى بالطُّغْيَان مَاحقًا للنِّعمِ وزوالها!

إنَّ جزَاءَ الإِعراض الذي وَقَعَ فيه «قوم سَبَأ» كانَ سَبَبًا في إرسالِ «سَيلِ العَرِم»، العقوبة الإلهية الجارفة التي أحالت الجمالَ إلى قُبْح، والنِّعمَ إلى نِقَم، وتحولتِ البساتينُ والجِنانُ المثمرة إلى



إمحال.. وباتتِ «البلدةُ الطيبة» مُرَصَّعَةً بالذُّلِّ والخسران! وإنَّ من أعجبِ ما استوقفني في قصةِ «سبأ»، ما امتنَّ الله به عليهم من تقريبِ المسافاتِ وانزواءِ الطرق، وتقديرِ السَّيْر من مَكانٍ لآخر دونَ مشقَّةٍ وعناء، يسيرونَ فيها متى ما أرادوا من ليْلٍ أو نهار، في مأمنٍ من العدو، والجوعِ والعطش!

وبعدَ كلِّ هذا الفَضْل، وتلكمُ النِّعم، يقولون: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سورة سبأ: 19]. إنه «الخذلانُ الإلهي» للقوم الظالمين.. وقِلَّةُ التَّوفيق، وضياع الهدف، وطيشُ العقل، والغفلةُ عن مآلاتِ الأمور.. وبطرُ العيشِ الذي أوقعهم في هُوَّةِ التَّمزقِ والشَّتَات!

وكلَّما قَرَأتُ هذه الآية، تَسَاءلتُ في نفسي: كَيْفَ لقومٍ أن يدعوا على أنفسهم بدعوةٍ كهذه؟! لماذا طلبوا التمزيقَ والتيه والتباعد والشتات، وتبديدَ النِّعم؟! إنه الخذلان المتولِّدُ من الطُّغْيَان.. فإذا ما اجتمعَ الطغيان والخذلان؛ وقعتْ مثلُ هذه الكوارثِ على الأمَمِ والشعوب!

وقد ضَرَبَ القرآنُ لنا مثلًا لذلك؛ كُفَّار قريش، حينَ قالوا بكلِّ خذلانٍ وطغيان: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [سورة الأنفال: 32]، وهذا إغراقٌ في الطغيانِ لا يتفوه به إلا مخذولٌ من الإله!

لقد جاءت قِصَّة سَبَأ تخبرنا عن المقدمةِ والنتيجة.. تحدثنا عن

الطُّغْيَانِ والخذلان.. لقد صورت لنَا غيابَ العقل، وتعَفُّن القَرَار الجَمْعي.. إنَّ سورة سبأ، تقول لنا: إنَّ الإنسان، الأمَّة، الدولة، المجتمع، الجماعة، تُعْطَى وتُمْنَح، فإن شَكَرتِ الإله فقد عَبَرَت طَرِيقَ النجاة، واستحقَّت الذِكرَ والبقاء، وإن أعرضت؛ فسَيْلُ العَرِم، قادرٌ على تغييرِ الحالِ، وقَلْبِ الأمور.. ما زال «السَّيْل العَرِم»، يتجدَّدُ كعقوبةٍ إلهية، كلَّما أمعنا في الإعراض، وكَفَرَنا بالنِّعم، وجَحَدْنَا حَقَّ الإله.. ونسينا «القيمَ العليا» التي تَقِفُ حاجزًا في وجه السَّيْلِ الجارف!

وقد يأتي «سيلُ العرم» على هيئةِ ابتلاءٍ إلهيٍّ كتفشي «الأمراضِ والأوبئة» التي لم تكن في أسلافنا، وقد يأتي على صورةِ «حاكمٍ طاغية» يُبتلى به القوم؛ ويكونُ سببًا في قَلْبِ أحوالهم وتبديدها، وقد يأتي سَيْل العَرِم على شَكلِ «جماعاتٍ متطرِّفة»، تَتَّسِمُ بالغلو، تجرفُ الأمة إلى الشَّقَاءِ والبَلاءِ والويلاتِ والتَّمَزُّقِ والضَّيَاع.. وهي في حقيقتها عقوبة إلهية سُلِّطَت على المعرضينَ عنِ الإله الحقِّ وتعاليمه!



أمثالُ النّور الخالِد

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النحل: 75 - 76].

في سورةِ النحل؛ ضَرَبَ الله مثلًا لعَبْدَيْنِ ورَجُلَيْن، أحدهما: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل: 75].

يُمَثِّلُ العَبْدُ الأول نَموذج العبوديةِ المعَتَّقَة المتَجذِّرَة، التي فَقَدَتِ الحَوْلَ والقُوَّة، ولم تلتفت إلى مواطنِ القُدْرة والقُوَّة التي تملكها، وتَضَمَّخَ -العبد- بالعَجْز، واحتمى بالوهْم؛ فَبَاتَ لا

يقدِرُ على شيء، عَالَة، محمولًا غيرَ حَامِل، ومُقَادًا غير قائد، عَاجزًا عن التَّصَرُّفِ والتَّغيير!

ويُمَثِّلُ الآخر نَموذجَ الحَركةِ الدَّائِبة، والنَّهضَةِ القائمةِ في النَّفْس؛ لأنَّ العَبْدَ رُزِقَ رِزْقًا حَسَنًا، بعدَ طَرْقِ أبوابِ الأسبَاب، فتمكَّنَ منها.. وبَدَأ أثره ينعكسُ على الآخرين.. فهو يُنْفِقُ من هذا الجهد في السِّرِّ والعَلَنِ ما يَشَاء.. يُمارِسُ قيمةَ العَطَاء للآخرِ في كلِّ أحواله.. ولو عَقَدْتَ أدنى مُقارنةٍ بينهما، لاتضحَ لكَ البَوْنُ الكبير بينَ النَّموذجين!

وينسحبُ هَذَانِ المثَلانِ على «الأمم»، فتلِكَ أُمَّةٌ مملوكة، لا تقدرُ على شيء.. فسَقَطَت، وتاهتْ، واختفت تحتَ أقدَامِ الأُمَمِ الرَّاكضة، الدَّائبة، المتحفزة، وباتت بلا حَوْلٍ ولا قُوَّة! وتلكَ أُمَّة تَشَبَّثَتْ بالأَسبَاب، فامتلكت أسبَابَ الرِّزقِ والقُوَّة، وفاءت ظلالها على غيرها من الأُمَمِ الضَعِيفَة تَمُدُّ يَدَ العَوْنِ والعَطَاء!

ثمَّ ضَرَبَ الله مَثَلًا لرَجُلَيْن «نموذجين» آخرين؛ أحدهما: ﴿أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ [سورة النحل: 76]، أبكم، لا يفهم، ولا يُفْهِم؛ لصَمَمِه وبكمه! يعيشُ صَمْتًا مطبقًا، وسكونًا قاتلًا، عاجزٌ عن نفعِ نفسه وعن نفعِ غيره، لا قدرةَ له على شيء، لا فائدةَ منه، يعيشُ عِبئًا على سَيِّدِه ومولاه، يتكئُ عليه، فقد سُلِبَ التَّوفِيقَ والسَّداد، وأخفقَ في كلِّ شيء، فـ: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، ولا يظفرُ بمطلوب، تبَلَّدَت قدراته، وفَقَدَ البَوصَلة،



ولم يعد يأتِ منه خيرٌ يُرتجى! ثمَّ سَألَنا اللهُ هل يستوي من كان هذا حاله، مع من ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة النحل: 76]؟ اللهمّ لا!

إنَّ من يأمرُ بالعَدْل، لن يَكونَ أَبْكَمَ عنِ الصَدْحِ بالحق، لن يَفْقِدَ القُدْرَةَ على التَوَاؤم مع المتناقضات، والمتغيرات، والمصائب، لن يَشْعُرَ بالعَجْز؛ لأنَّ الأُسس قَائمة على قِيْمَةِ «العَدْل»، العَدْل معَ النَّفْس ومعرفةِ حقيقتها، ومع الأخَرين.. العَدْلُ بمفهومه المطلَق، وقيمته العظمى، وآثاره المدهِشَة، سَبَبٌ للبَقَاءِ على الصِّرَاطِ المستقيمِ في الدُّنيا والآخرة!

وعندما ذَكَرَ التَّمايزَ بينَ المثالين، وَصَفَ الله المثَلَ المحمود في النَّصِ القرآني، بـ صفةِ «العدل»﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، ثمَّ خَتَمَ الآية؛ ببيانِ ما يترتَّبُ على السَّيْرِ في طَريقِ العدلِ بأنَّه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة النحل: 75]، والصِّراطُ المستقيم، هو ذاته الذي ينشُدُه المؤمنونَ من رَبِّهم عِندَ كلِّ صلاة، في مُفتَتَحِ البَيَانِ القُرآنيِّ الخالد؛ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]. كما أتى الجمع بين «الاستقامة والعدل» في سورة الشورى، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: 15]. وهذا الامتزاج بينَ **العَدْلِ والاستقامة**، في المنظورِ القرآني؛ يحيلنا إلى معنى الهداية المراد بها في سورةِ الفاتحة، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: صِراط

العَدْلِ القَويم! وهُمُ المعنيُّونَ ذِكْرًا في سورةِ طه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[طه: 135].

وبناءً على ما سَبَق، فإنَّ منسوبَ الاستقامةِ زيادةً ونقصانًا؛ مَرَدُّه إلى العدل، فهو ميزانُ الاستقامة، فمنَ عَدَلَ استقام.

وتأكيدًا على ذلك، نلاحظُ عندَ الوقوفِ على الأمرِ الإلهي بـ الاستقامة، في سورةِ هود: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 112 - 113]. ظهور صفةِ العدل، وذلكَ من خلالِ التَّحذيرِ من الطُّغيان ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ﴾، والطغيانُ نقيضُ العَدْل؛ لأنه تجاوزٌ للحَدِّ المستقيم! كما أنا نجدها وَنَتَلَمَّسُهَا -أيْ صفة العَدل- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾، والركونُ هنا: ميلانٌ عنِ الصِّراطِ السَّوي، ومفارقةٌ لطريقِ العدل، ومنهجِ الاستقامة، يودي بصاحبه إلى الانحدارِ مع الظلمةِ والطُّغاة.

وكلا النموذجينِ ينسحبانِ على الأمم؛ فتلكَ أُمَّةٌ بكماء لا يُسْمَعُ منها غيرُ البُكَاءِ والعويل، فَقَدَتِ القُدْرَةَ على التَّغيير، أينما اتجهت عادت (دونَ خُفَّيْ حُنَيْن)؛ فلا خَيرَ منها يُرْتَجى ولا أَمَلَ منها يُنتَظَر! وتلكَ أُمَّة أَقَامَت سَيْفَ العَدْل، وأَمَرَت بالعَدْل، فأضفى العَدْل عليها من خَيْرَي الدُّنيا والآخرة!

فهل يستويانِ مثلًا.. اللهمّ لا!

دعوةٌ للجمال

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [سورة الملك: 5].

والسَّماء الدُّنيا هي الفَضَاء الأعلى الأقرب للأرض، وهي التي يراها الرائي، زَيَّنَهَا الله بِنجُومٍ مضيئة، شُبِّهَت بالمصابيح؛ تنتشرُ على صفحتها كأنَّهَا اللآلئ، لجمالها وإِشْرَاقها.

«والسماء خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لا تتجاوزه إلى اليد التي أبدعته، ولا تلتفت لما فيه من كمال. ولكنَّ السورة تبعثُ حركة التأمل والاستغراق في هذا الجمال والكمال وما وراءها من حركةٍ وأهداف»[1].

---

(1) «في ظلال القرآن» (6/ 3629).

ومصطلحُ السَّماء يفيدُ العُلو والظُّهُور والطَّلْعَة، ومما نستشفه من الآية الكريمة:

أن نعْمَدَ إلى أقربِ سماءٍ في أنفسنا وحياتنا وواقعنا، يراها الرَّائي وتظهرُ له، فنقومُ بتزيينها بما يَسُرُّه، ويمتِّعُ نَاظِرَيه..

فَسَماءُ هيئتنا وطَلْعَتْنَا نُزَينها بأنظفِ الملبس وأحسنه، (ومن لطيفِ الفعل أن نستترَ عن عيونِ الآخرين عندما نقترفُ ما يسيءُ لجمالِ هيئتنا).

وسماء حديثنا نُزَينها بأطيبِ الكلام وأعذبه وأصدقه.. وسماء منازلنا نزينها بما يضفي جمالًا على بنائها، وينعكسُ ذلكَ على من يَرَاهَا..

وهذا يدعونا من بَاب أولى لتزيينِ نَاصِيَاتِ المدن والشَّوَارِع بكلِّ شيء جميلٍ ومشرق، كزرعِ الأشجَار، وبَثِّ الأَنْوَار، والاهتمام بالعمران..

ولا يعني كل ذلكَ أن نُهْمِلَ الجَمَال في ما لا يظهر للآخر، فمن تجمَّلَ في الظَّاهر حَرِيٌّ به أن يَتَجَمَّلَ في البَاطِنِ من بابِ أولى.. ومن يسعى لنشرِ الجمال بين الخلق، لا يحسُن به أن يعيشَ القُبْحَ في داخله..

فنشر الجَمَال أمرٌ حَسَن، وإشاعته بينَ النَّاس خُلُقٌ لطيف، والجَمَالُ محبَّبٌ للنَّفْس، والله جميلٌ يحبُّ الجَمَال.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1. «أديان العالم» د. هوستن سميث، تعريب وتقديم: سعد رستم، ط/ 3، دار الجسور الثقافية، حلب: 1428هـ- 2007م.
2. «إشراقات قرآنية «جزء عم»» د. سلمان بن فهد العودة، ط/ 2، مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، الرياض: 1433هـ.
3. «الإنسان الخليفة في ضوء سورة العلق، دراسة مقارنة بالكتابِ المَقَدَّس»، خالد عبد الله بريه، جامعة الحديدة، كلية التربية، 2017م.
4. «الإيمان والحياة»، يوسف القرضاوي، ط/ 4، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1399هـ- 1979م.
5. «التحرير والتنوير»، محمد الطاهر ابن عاشور، ط/ دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس: 1997م.

6. «التسهيل لعلوم التنزيل» أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله، ابن جزي الكلبي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، ط/ 1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت: 1416هـ.

7. «التعبير القرآني» د. فاضل صالح السامرائي، ط/ 8، دار عمار، عمان: 1434هـ - 2012م.

8. «التفسير البياني للقرآن الكريم» عائشة محمد علي عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ط/ 7، دار المعارف، القاهرة.

9. «التفسير القرآني للقرآن» عبد الكريم يونس الخطيب- دار الفكر العربي - القاهرة.

10. «التفسير الموضوعي» محمد الغزالي، ط/ 4، دار الشروق، القاهرة، 1420هـ - 2000م.

11. «الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)» أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط/ 2، دار الكتب المصرية، القاهرة: 1384هـ - 1964م.

12. «القرآن وقضايا الإنسان» عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ - ط/ دار المعارف- القاهرة.

13. «الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبدالرزاق مهدي، ط/ دار الكتاب العربي- بيروت: 1407هـ.

14. «المختصر في التفسير» إعداد مركز تفسير للدراسات القرآنية،



ط/ 1، مكتبة روائع المملكة- جدة.

15. «بين علم آدم والعلم الحديث» محمد شهاب الدين الندوي، مجلة دعوة الحق، 1986م، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، العدد: 61.

16. «تفسير الجلالين» جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط/ 1، دار الحديث، القاهرة.

17. «دراسات إسلامية» سيِّد قطب، ط11، دار الشروق، القاهرة، 1427هـ- 2006م.

18. «زهرة التفاسير» محمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، ط/ دار الفكر العربي.

19. «سنن أبي داود»، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ط/ دار الكتاب العربي - بيروت.

20. «عودة إدريسي» ندين بنت مصطفى السليمي، ط/ 1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت: 1435-2014م.

21. «فضاءات الحرية بحث في مفهوم الحرية في الإسلام»- د. سلطان العميري- ط/ 2، المركز العربي للدراسات الإنسانية- القاهرة: 2013م.

22. «في ظلال القرآن» سيد قطب، ط/ 32، دار الشروق، القاهرة، 1423هـ- 2003م.

23. «لمحات نفسية في القرآن الكريم» عبد الحميد محمد الهاشمي-



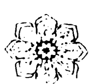
مجلة دعوة الحق، 1989م، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، عدد: 11.

24. «مجموع الفتاوى» أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.

25. «مفاتيح الغيب» فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1421هـ - 2000م.

26. «من أجل صحوة راشدة تجدد الدين، وتنهض بالأمة» د. يوسف القرضاوي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1422هـ - 2001م.

27. «من حديث القرآن عن الإنسان» د. علي العماري، مجلة دعوة الحق، 1989م، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامي، عدد: 87.



الفهرس

مقام التَّزكية



مقام العمران والتغيير



المغاربية لطباعة واشهار الكتاب

22، نهج المقاولين – المنطقة الصناعية الشرقية – أريانة – تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ – الفاكس : 975 838 70 216+

يكادُ أن يُجمعَ العُقلاءُ من بني الإنسان ممن قرأوا القُرآنَ الكريمَ بروحٍ محايدةٍ منصفةٍ، بعيدةٍ عن التّحيُّز؛ أنّ للقرآنِ "سطوةً" عجيبةً، وتأثيرًا مدهشًا، لا ينكرها أحدٌ ممن أنعمَ النّظرَ فيه، ووقفَ عليه، ولو كانَ مجرد سماعٍ لبعضِ آياته!

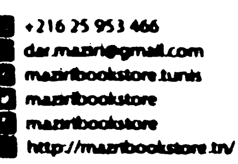
وقد مَنَّ الله عليَّ وقرأتُ شيئًا كبيرًا من التّوراةِ والإنجيل، وكنتُ أقرأُهما بروحٍ بعيدةٍ عن التّحيُّز، ومتغاضيًا عن الحمولةِ الفكريةِ التي أؤمنُ بها تجاههما مُسبقًا، فما وجدتُ تلكَ السّطْوة التي تهزُّ جدرانَ القلبِ والعقل، ولا وجدتُ ذلكَ التّأثير الذي يأخذكَ من تلابيبك، ويُشعركَ بكَمَالِ الرّوعةِ، وعَظِيمِ الإكبار.

وبيانًا لسَطْوَةِ القُرآنِ الكريم على قلبِ المتلقّي، أُقدّمُ هذا الكتابَ إلى قُرّاء العربية، يَضُمُّ بينَ حَنَايَاه تأمُّلاتٍ وخَواطِرَ حول آياتٍ من القُرآنِ الكريمِ، كَتَبتُها - في الغالب - أثناءَ قراءتي للقرآنِ، وكثيرًا ما كان ينبعثُ في ذِهني معنًى من المعاني، أو فكرةٌ من الأفكار، أخشى أن يُعَفّي النِّسيانُ آثَارَهَا، ويَطمِسَ الإهمَالُ أنوارَهَا.. فأقيدها، وأجدُ نفسي ممتلئةً بمعانيها.. فلا أستفيقُ إلا وقد سطَّرتُ شيئًا لم يكن في خاطري قبلَ القراءة!

من مقدّمة المؤلّف







دار الإمام المازري للنشر والتوزيع

نهج صهيب بن سنان المنيرة 1 تقسيم الوكالة العقارية السكنى

فرع تونس 11 نهج السبخة باب الجزيرة 1000

الجمهورية التونسية

